أضواء على الشعر العربى فى غربى أفريقيا

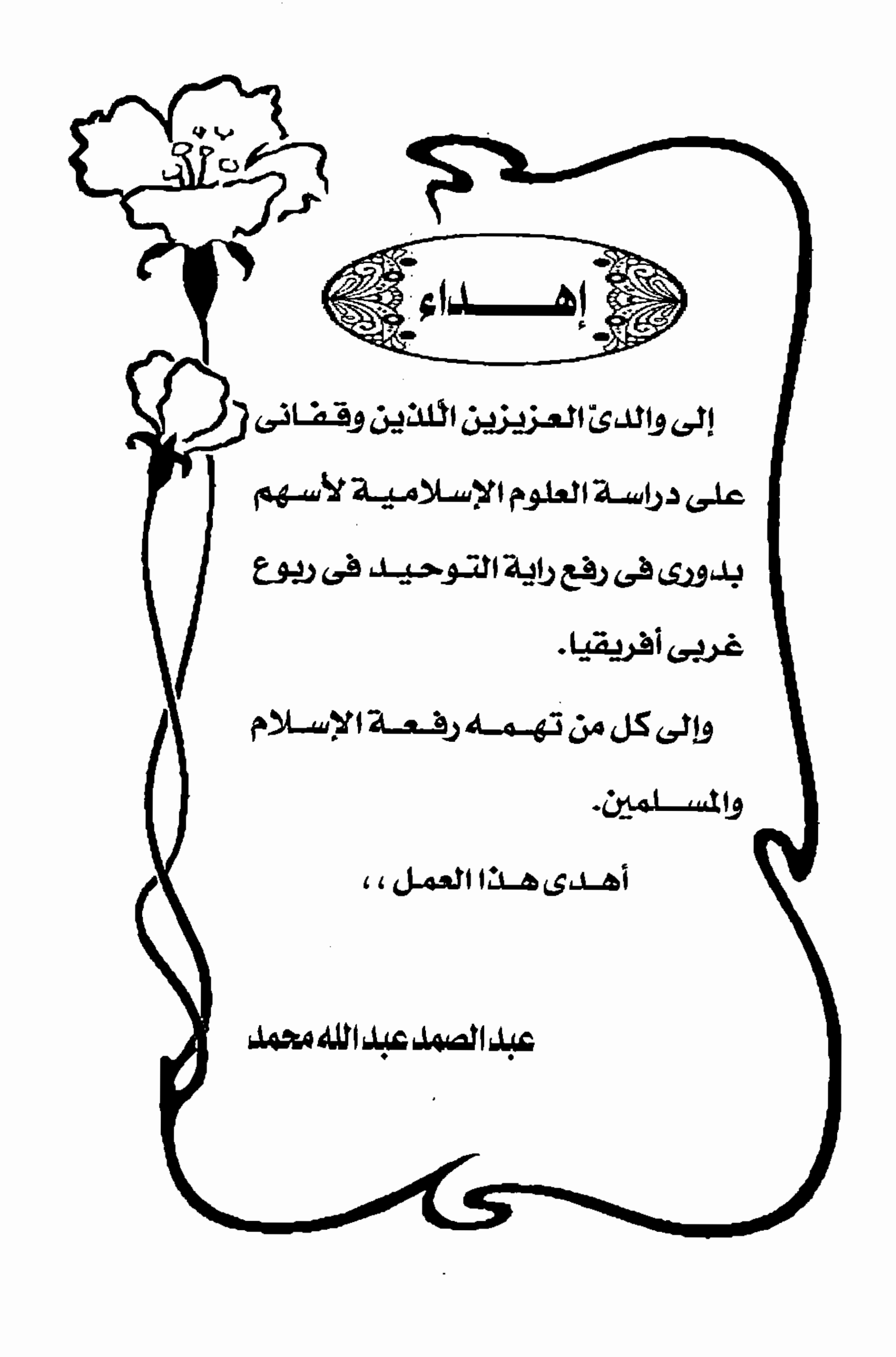
(السنغال ونيجيريا)

الدكتـور
عبد الصمد عبد الله محمد

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية . عابدين
القاهرة . تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعـة الأولـى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م



إهـــــداء

إلى والدىّ العزيزين اللذين وقفانى على دراسة العلوم الإسلامية لأسهم بدورى فى رفع راية التوحيد فى ربوع غربى أفريقيا.

وإلى كل من تهمه رفعة الإسلام والمسلمين.

أهدى هذا العمل ،،

عبد الصمد عبد الله محمد

المقدمة

الحمد لله العليم الحكيم القائل فى محكم آياته: ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ [الانبياء: ٩٢] والقائل أيضا ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ ﴾ [الشورى: ٧].

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين بشيراً ونذيراً، ومعلمًا للبشرية سبل الهداية والسعادة، وعلى آله الطيبين وصحابته الغر الميامين ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين.

وبعـــد . . .

فقد أشرقت الأضواء الأولى للإسلام على منطقة غربى أفريقيا منذ زمن بعيد . .

وظل يعمل عمله فى النفوس والعقول والقلوب، وتسللت اللغة العربية فى ظلاله الناعمة الوارفة، بحسبانها لغة العبادة، التى لا بد من الإلمام بها لتلاوة القرآن وإقامة الصلوات.

ثم جعلت تتسع مساحتها شيئًا فشيئًا حتى أصبحت لغة الثقافة والفكر.

وأغرم القوم بعلومها وآدابها يستمدون غذاءهم الروحى والعقلى والفنى من المصدر الأم فى المشرق العربى الإسلامى وفى المغرب ... وظلوا كذلك حتى تشبعت نفوسهم وأرهفت عقولهم وتضلعت ملكاتهم .. ثم آن للغرس أن يثمر .. ففاضت قرائحهم فى شتى مناحى الثقافة العربية الإسلامية، وكان الحصاد وافراً غزيراً، منه ما يتصل بحقل العقيدة والفقه، ومنه ما يتصل بحقول علوم العربية

من نحو وصرف وبلاغة وعروض، ومنه ما يتصل بحقل المعارف الإنسانية من تاريخ وتراجم وسير، ومنه ما يتصل بحقل فنون الأدب من شعر ونثر. وظل الخالفون منهم يضيفون إلى تراث السالفين .. فى مختلف المناحي الروحية والعقلية والفنية لا يفترون .. ولكن بعد ديارهم عن المصدر الثقافى الأم فى الشرق، ضرب حصار العزلة على حصاد معارفهم، حتى ما يعرف عنها فى بقاع الإسلام فى المشرق خاصة إلا أقل القليل .. ثم ساعد على ذلك مؤامرات المستعمرين من أهل الغرب الذين يحرصون أشد الحرص على قطع ما أمر الله به أن يوصل بين أهل الإسلام .. وإمعانا منهم فى الكيد نقلوا أمهات المخطوطات التى تمثل النشاط العقلى والأدبى إلى مكتباتهم فى أوربا .. ثم قاموا بترجمة ما يهمهم منه إلى لغاتهم، ليكونوا على معرفة تامة بمزاج القوم ونفسياتهم، حتى يسهل عليهم تسييسهم وإحكام تغييبهم تحت ستار مسدل فى ظلمات الاستعمار.

وهكذا تم حجب الثقافة العربية الإسلامية فى منطقة غربى أفريقيا تحت ثقل عاملين شديدى الوطأة: أحدهما بُعد الشقة عن الثقافة الأم فى المشرق العربى الإسلامى، والثانى مؤامرات المستعمرين الخبيثة التى ترتبط مصالحهم بحجب هذه الثقافة.

ولتقريب الثقافة العربية الإسلامية فى غرب أفريقيا من الثقافة الأم فى المشرق والمغرب العربيين، ورغبة فى الكشف عما حجبه المستعمرون عن أنظار العالم من تراث المنطقة العربى الإسلامى وسكت عنه المستشرقون – رغم شدة عنايتهم بجمع تراث المنطقة ودراسته – فلا تكاد تجد له ذكرا حتى فى تأريخهم لإسلام المنطقة فضلا عن دراسته مما حدا بتلامذتهم من أبناء المنطقة إلى تغييب هذا التراث عن دراستهم للتراث الإبداعى لأهل المنطقة، سواء ما كان منه بلغة القوم أو بلغة دخيلة عمدا أو جهلا، ولما سبق كله رأيت أن أدلى بدلوى فى بعث هذا التراث من مقبرة التاريخ فاخترت أن يكون الشعر مجال بحثى فى تراث القوم

العربى. وقد وقفته على السنغال ونيجيريا فحسب، حتى تأخذ الدراسة حقها من الشمول والعمق بعون من الله وتوفيقه تاركًا بقية المنطقة لفرصة تالية إذا أذن الله تبارك وتعالى ..

ولا بد من الإشارة إلى أن هناك ثلاثة باحثين قد كان لهم فضل السبق إلى العناية بهذا الموضوع، أو لهم الدكتور على أبو بكر باطروحة لنيل درجة الدكتوراه بعنوان «الثقافة العربية فى نيجيريا».

وقد لاحظت أن رسالته جنحت إلى الإجمال فيما يخص الثقافة العربية بصفة عامة والشعر العربى بصفة خاصة.

ثم تلاه الدكتور أحمد سعيد غلادنشى بأطروحة أخرى بعنوان: «حركة اللغة العربية وآدابها فى نيجيريا».

وقد لاحظت أنه قد طغى الحس التاريخى على الجانب الفنى فى رسالته، مهملاً الرجوع إلى كنوز من المخطوطات التى تضمنت نماذج فنية من الشعر البلغ الأهمية.

ثم تلاهما الباحث سركى إبراهيم فدرس «فن الرثاء عند شعراء ولاية كانوا فى القرن العشرين» .. فى أطروحة لنيل درجة الماجستير ..

وكانت دراسته أكثر تخصصًا من سابقيه وأبعد تعمقًا، وقد ساعده على ذلك اقتصار الدراسة على فن واحد من فنون الشعر وفى بيئة واحدة من بيئات نيجيريا المتباينة .. هذا فيما يخص نيجيريا.

أما فى السنغال، فقد كان للدكتور عامر صمب فضل سبق فى جمع بعض التراث الشعرى العربى للسنغال بعنوان «الأدب السنغالى العربى».

غير أنه لم يعن بتحقيق النصوص ودراستها فنيًا، ويكفيه فضل السبق .. ويعلم الله وحده كم بذلت من جهد فى سبيل الحصول على المخطوطات التى قصرت دون الحصول عليها الإخوة الفضلاء من الباحثين السابقين.

هذا .. وقد واجهت صعوبات وعقبات فى سبيل إنجاز هذا البحث .. منها أن مادة الدراسة لهذا الموضوع لا يزال أغلبها مخطوطات متناثرة بين مكتبات أوربا وجامعات غربى أفريقيا وعلمائها المتناثرين فى مدنها وقراها كما سبق أن أشرت .. فكان لزامًا على أن أجمع المواد من مظانها، فكابدت فى سبيل ذلك ثلوج أوربا فى فصل الشتاء ممثلة فى بريطانيا وفرنسا، كما عانيت نصب السفر بين قرى نيجيريا والسنغال من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال .. وكان حتمًا على تحقيق النصوص أولاً ثم دراستها ثانيًا، فكنت فى هذه الدراسة محققًا ودارسًا فى آن واحد. وقد استعنت بالله رغم وعورة الطريق فكان لى فى ذلك جهد المقل مع بذل المستطاع.

وقد اقتضت طبيعة البحث الذى تسير فيه الدراسة فى اتجاه فنى تحليلى للشعر، أن أقسم البحث إلى ثلاثة فصول وخاتمة:

* يتناول الفصل الأول منه: «نشأة الشعر العربى فى غربى أفريقيا» معالجًا القضايا الآتية:

(أ) المناخ الثقافى الذى نشأ فيه الشعر العربى فى غربى أفريقيا.

(ب) حالة اللغة العربية فى تلك الفترة.

(جـ) أهم المؤلفات العربية التى كانت تدرس فى المساجد والزوايا والخلوات.

(د) أقدم النصوص الشعرية التى كانت متداولة بين طلاب العلم.

(هـ) مراكز الإشعاع للثقافة العربية الإسلامية فى المنطقة.

* ويتناول الفصل الثانى «فنون الشعر العربى فى غربى أفريقيا» معالجًا القضايا الآتية:

(أ) الشعر الغنائى بأغراضه التقليدية من مدح ورثاء ووصف وفخر وهجاء وغزل بالإضافة إلى الشعر الإسلامى متمثلاً فى جهاد الوثنيين والشعر الوطنى ممثلاً فى كفاح المستعمرين.

(ب) الشعر التعليمي بما يشمل من زهد ووعظ وإرشاد ومنظومات علمية.

* ويتناول الفصل الثالث: «الملامح المميزة للشعر العربى فى غربى أفريقيا» معالجًا القضايا الآتية:

(أ) أثر الروح الدينية على أشعارهم.

(ب) الآفاق التى يستوحون منها صورهم وأخيلتهم.

(جـ) أثر التكوين الثقافى فى نسيج أشعارهم.

(د) حظ أفكارهم من العمق الذهنى والتأمل الفلسفى.

(هـ) موسيقى أوزان الشعر الأثيرة فى أشعارهم.

(و) ملامح البيئة الأفريقية فى هذا الشعر.

(ز) كثرة استعمالهم للألفاظ الغريبة.

ثم انتهى البحث بخاتمة سجلت فيها أهم النتائج التى توصلت إليها.

والحمد لله فى الأولى والآخرة ،،،

ملبورن، دونكستر إيست، عصر الإثنين الثالث والعشرين من شعبان ١٤٢٠ هـ الموافق العشرين من شهر نوفمبر ٢٠٠٠م.

* * *

التمهـــيد:

فجر الإسلام في غربيّ إفريقيا (*)

أطلقت كلمة (Africa) قديما على الإقليم الذى يقابل الشمال الشرقى من الجمهورية التونسية حاليا. وكان معروفا باسم «ولاية أفريقيا القنصلية لروما»، وهو الذى عرب فيما بعد إلى «إفريقية»، أطلقه العرب فى بداية الأمر على كل ما يلى إقليم طرابلس غربا، فتحدد مدلول هذا اللفظ «إفريقية» مقتصرا على ما يلى طرابلس غربا حتى «بجاية»، ثم أصبح يعنى إقليم تونس [١]. وكان اللاتينيون فى النصف الأول من القرن الثانى قبل الميلاد قد أطلقوا اسم «أفريكا» على القسم الذى خضع لنفوذ الفينيقيين من تونس الشمالية. وهو الجزء الذى كان تقطنه قبائل «أفرى» والمقصود به الجزء الذى جعلته روما ولاية لها بعد تدمير قرطاجنة سنة ١٦٤ قبل الميلاد [٢].

ويرجع بعض الباحثين كلمة «أفريكا» إلى أصل يونانى، وأن «أفريكوس» مشتقة من اللفظ اليونانى «أفريكا» وهى جملة مكونة من حرف «آ» ويفيد النفى، وكلمة «فريكا» تعنى «البرد» أى البلاد التى لا برد فيها أو البلاد الحارة [٣]، ثم أصبحت التسمية تشمل بقية القارة المعروفة الآن بالقارة الإفريقية.

أما غربى إفريقيا الذى هو هدفنا فى هذه الدراسة، فهو جزء مما كان يعرف

(*) هذا الفصل بحث نشر للمؤلف فى مجلة التجديد التابعة للجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، فى العدد السادس ربيع الثانى ١٤٢٠ / أغسطس ١٩٩٩.

(١) صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، للقلقشندى، جـ٥، ص ٩٩ – ١٠٩، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، وكذا Encyclopaedia International, p.114.

(٢) Encyclopaedia Britanica, p.128 and Encyclopaedia , p.118 .

(٣) Short Etymological Dictionary in Modern English Origin, p.8; Altin Dictionary p.69.

قديما عند المسلمين ببلاد السودان، إذ أطلقوا هذه التسمية على بلاد جنوبى الصحراء الكبرى، كما أطلقوا على منطقة شمالى إفريقية والصحراء «بلاد البيضان»، وكانوا يقصدون ببلاد السودان المنطقة العريضة جنوبى الصحراء الممتدة من المحيط الأطلسى فى الغرب إلى هضبة الحبشة فى الشرق، ومن الصحراء فى الشمال إلى الغابات الاستوائية فى الجنوب. والعرب أول من أطلق على هذه البلاد «بلاد السودان» مستوحين هذه التسمية من لون بشرة السكان.

وقد قسم بعض الباحثين هذه البلاد إلى ثلاثة أقسام رئيسية:

الأول: السودان الغربى ويشمل حوض السنغال وجامبيا وبوركينا فاسو [١] والنيجر الأوسط.

الثانى: السودان الأوسط ويشمل المناطق المحيطة ببحيرة تشاد، أى أنه يمتد شرقى نهر النيجر حتى الحدود الغربية للسودان الشرقى.

الثالث: السودان الشرقى، وهو المعروف الآن بسودان وادى النيل، ويشمل مناطق النيل وروافده جنوبى بلاد النوبة. وكان هذا القسم يعرف عند العرب بين القرنين التاسع والثانى عشر الميلاديين باسم «بلاد الزنج»، وهى التسمية الغالبة عليه فى تلك المرحلة إلا أن كلمة السودان كانت تشمله أيضا [٢].

أما غربى أفريقيا، فيشمل السودان الغربى والأوسط، أى المنطقة الواقعة بين بحيرة تشاد شرقا والمحيط الأطلسى غربا، وتحدها من الجنوب المناطق الاستوائية، ومن الشمال المناطق الجنوبية للصحراء، وتقع بين خطى عرض ٩، ١٧ درجة شمال خط الاستواء.

وقد كانت تربط بين شمالى إفريقيا وغربيها علاقات قديمة تشهد لها أحداث التاريخ؛ فقد وجدت عدة طرق للقوافل التجارية بين شمالى إفريقيا إلى

---

(١) فولتا العليا سابقا.

(٢) مملكة السنغاى فى عهد الأسقيين، عبد القادر زبادية، (الجزائر: طبعة الشرق الوطنية للنشر والتوزيع) ص ١٥ .

غربيها عبر الصحراء الكبرى، كانت بعض هذه الطرق من مراكش وتلمسان وتونس وطرابلس ومصر متجهة إلى الجنوب فتجتاز الصحراء الكبرى وتصل إلى المراكز التجارية الرئيسة فى غربى إفريقيا مثل: «غانة» القديمة وتمبكتو وولايات الهوسا وكانم وبرنو وغيرها. وقد تتصل بالصحراء وتتفرغ وتتجه إلى جهات مختلفة. فالقافلة التى تبدأ من القاهرة تتجه أولا صوب المغرب إلى أوجلة ومرزوق، وهناك تتصل بقافلة أخرى من طرابلس فيتجه بعضها نحو الجنوب إلى «كانم» بواسطة بلما، فى حين تستمر بعض القوافل حتى تصل ولايات الهوسا عن طريق أهير [١].

وهناك ثلاثة طرق رئيسة دخل منها الإسلام إلى غربى إفريقيا:

الأول: يبدأ من طرابلس ماراً بفزان وكوار وينتهى فى برنو داخل نيجيريا.

الثانى: يبدأ من تونس وينتهى فى كانو.

الثالث: يبدأ من تافللت فى المغرب ويتفرع فرعين: أحدهما يمر بسلجماسة وتفلزة والآخر بتوات وأودغست، ثم يجتمعان فى تمبكتو، ومنها شرقا إلى «كانو».

وهذه الطرق تدل على العلاقات التجارية القديمة التى كانت تربط بين شمالى إفريقيا وغربيها، تلك العلاقات التى وصفها الرحالة «بارت» بأنها أقدم مما يتصور [٢]. ويذكر بوفيل أربعة طرق أخرى رئيسة كانت تربط بين الشمال والجنوب:

الأول: من سجلماسة إلى ولات ثم إلى بلاد السنغال وأعالى نهر النيجر حيث يوجد الذهب.

---

(١) حركة اللغة العربية وآدابها فى نيجيريا، أحمد شيخو غلادنشى، رسالة دكتوراه ص٢.

(٢) الثقافة العربية فى نيجيريا، على أبو بكر، (بيروت: طبعة مؤسسة عبد الحفيظ البساط ص ٢).

الثاني : من غدامس إلى بلاد الهوسا الغنية عن طريق غاط وأهير.

الثالث : من طرابلس إلى برنو ونهر تشاد مارا بفزان وكوار.

الرابع : من قورينه (Cyrenica) إلى وداى عن طريق كفره [1].

وقد تحدث مارفين هسكيت عن هذه العلاقات التجارية القديمة بين الشمال والجنوب مرجعا تاريخها التقريبى إلى سنة ١٠٠٠ ق.م. إذ وجدت منذ ذلك العهد عدة طرق تجارية كانت تصل المغرب والصحراء الغربية.

أما الطريق الأول فيمتد من المغرب إلى الصحراء الغربية عبر موريتانيا الحالية إلى نهر السنغال، والفرع الشرقى لهذا الطريق يؤدى إلى «كمبى صالح» عاصمة إمبراطورية «غانا القديمة» ويرجح أن يكون هو الطريق الذى استعمل فى الغزوات العربية «الفتوحات الإسلامية» التى بدأت من جنوبى المغرب فى القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى متوغلة فى الصحراء وراجعة بكمية كبيرة من الذهب، وأن هذا الطريق قل استعماله ذات يوم ثم أعيد استخدامه فى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى عندما أنشأ البرتغاليون محطتهم التجارية فى ودان. وظل هذا الطريق مستعملا حتى نهاية القرن العاشر الهجرى / الثالث عشر الميلادى، وعندما فتح المسلمون شمالى أفريقة وربما فى العهد الرومانى، كان الطريق الثانى من طرابلس إلى «فزان»، وقد امتد من جنوب غربى فزان إلى «تدماكت» ويمكن أن يكون قد امتد حتى منحنى «النيجر». وكانت وسائل التنقلات المعتمدة فى ذلك الوقت الثور والخيل قبل دخول الجمل بلاد الصحراء فى القرن الثانى الميلادى. هذا ما يؤكده معظم المؤرخين فى شأن امتداد هذا الطريق داخل الصحراء.

أما الطريق الثالث للصحراء المار بـ«غاو» وجنوب غربى أهير إلى واحات خرجة، فقد كان مستعملا قبل دخول الإسلام فى شمال إفريقيا، وإن كانت

---

(١) حركة اللغة العربية وآدابها فى نيجيريا، ص ٣.

معرفة المدى الطويل له قبل الإسلام غير مؤكدة وكان مهجورا خلال القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى لخطورته.

ومهما يكن من أمر، فإن اتصالات شمالى إفريقيا وغربيها قد أعيدت ابتداء من القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى. ويبدو أن الذهاب إلى الشمال «فزان» أصبح ضروريا قبل اللحاق بالطريق المؤدى إلى مصر. وفى القرن الحادى عشر الهجرى / السابع عشر الميلادى، فتح الطريق المسمى بـ «الطريق السودانى» من وادى النيل الأعلى عبر فنج ودافور ووداى وامتد حتى برنو، كما وجد طريق قديم آخر فى الشرق من طرابلس إلى كانم عبر فزان وواحة كوار ويؤكد «مرتين» أن هذا الطريق كان مستعملا خلال العهد القرطاجنى فى القرن الثالث قبل الميلاد، وقد كان ممتدا إلى بحيرة تشاد فى وقت ما قبل القرن السابع الميلادى (الأول الهجرى) ويمكن أيضا أن يكون قد أغلق لفترة مؤقتة خلال الغزو العربى لشمال أفريقيا «الفتح الإسلامى» فى القرن الأول الهجرى / القرن السابع الميلادى، غير أنه سرعان ما افتتح من جديد واستمر فى الاستعمال مع توقفات آنية حتى القرن الرابع عشر الهجرى / العشرين الميلادى [١].

ومن مجموع ما سبق، يتجلى مدى قدم العلاقات التجارية بين شمالى إفريقيا وغربيها، ومنها نتعرف على الخطوات الأولى لدخول الإسلام فى غربى إفريقيا الذى هو هدفنا من هذا التمهيد فى هذه الدراسة.

لقد كان قيام حركة المرابطين ثم توغلهم فى الصحراء تحت قيادة أبى بكر عمر اللمتونى [٢] حدثا كبير الأهمية جعل الإسلام تحت الأضواء فى تاريخ غربى إفريقيا، إذ لم يكن المرابطون أول من بشر بالإسلام فى هذه البلاد، فقد سبقهم لذلك عدة محاولات هيأت للإسلام أن يدلف بخطى بطيئة فى غربى هذه القارة فى مدة لا تقل عن مائتى عام.

---

(١) M. Hiskett. The Development of Islam in West Africa.

(٢) هو أبو بكر بن عمر اللمتونى أحد زعماء المرابطين توفى سنة ١٠٨٨ هـ.

أما متى تسرب الإسلام إلى غرب إفريقيا فتلك قضية مجهولة حتى ألقى عليها بعض الضوء الفلكى العربى الفزارى [١] فى القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى، الذى عاش فترة ما بين ١٣٢ - ١٨٢ هـ / ٧٥٠ - ٧٩٩م، فقد كان يعرف الدولة السودانية «غانة» بوصفها مصدرا للذهب وأشار إلى أن التجار المسلمين كانوا ضمن أولئك الذين كانوا على اتصال مبكر بداخل السودان فى بداية القرن الثانى الهجرى / الثامن الميلادى، أو بعيد ذلك. ويعد الفزارى أول كاتب عربى مسلم أشار إلى ذهب السودان وكذلك ألقى الضوء على هذه الحقيقة الجغرافى العربى المسلم ابن الفقيه المتوفى ٣٦٥ هـ/٩٧٦م، [٢] حيث تحدث عن طرق القوافل التجارية عبر الصحراء من غانة إلى مصر عن طريق «غاو» مدينة القوافل فى منحنى النيجر. وقد ظل هذا الطريق مهجورا من القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى، ولكنه كان مستعملا لمدة طويلة قبل هذا الهجران، وربما قبل فتح المسلمين لمصر، فمن الجائز إذن أن يكون ثمة تأثير إسلامى قادم من مصر إلى السودان الغربى منذ القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى)، والذى ينبغى أن نلاحظه هنا أنه ليس هنالك دليل قاطع على أن هذا التأثير فى القرن الأول الهجرى كان ثابتا. ولكن هناك احتمالات لحصوله فى هذا الوقت المبكر. فمعلومات الجغرافى المسلم المهلبى [٣] المتوفى سنة ٣٨٠ هـ/ ٩٩٠م، التى تشير إلى أنه كان لمدينة (غاو) ملك مسلم وكان فيها مسجد فى عهده، تؤكد هذا الاحتمال إذ لا يعقل أن هذا كله قد تم فى ليلة واحدة، وكذلك ما ذكره

---

(١) هو إبراهيم بن حبيب بن سمراء أبو عبد الله الفزارى، وهو الذى يقول فيه جعفر بن يحيى : لم ير أبدع فى فنه من الكسائى فى النحو والأصمعى فى الشعر والفزارى فى النجوم. معجم الأدباء لياقوت الحموى، ج ١٧، ص ١١٩ - ١٢٠.

(٢) هو أحمد بن إسحاق بن إبراهيم الهمدانى ويعرف بابن الفقيه (أبو عبد الله) أديب عالم بتقويم البلدان ومن تصانيفه (كتاب البلدان) معجم المؤلفين، جـ ٣، ص ٣١٣.

(٣) هو حسين أحمد بن المهلبى له كتاب (المسالك والممالك) المشهور بالعزيزى ألفه للعزيز بالله الفاطمى صاحب مصر ونسبه إلى اسمه، معجم المؤلفين، جـ ٣ ص ٣١٣ .

البكرى [1] من وجود حى إسلامى فى (غاو) وأن ملك هذه المدينة كان مسلما [2] . وتلك حقيقة أكدها المؤرخ الإفريقى السودانى أحمد بابا التمبكى، وقد ذكر أنه كان يوجد اثنا عشر مسجدا فى مدينة (غانه) (كومبى صالح) حوالى عام ٦٠ هـ/ ٦٧٩م، وأن إمبراطورية أودغست الإسلامية وهى التى كونها (السوننك) إحدى فروع (الماندنجو) قد قامت بدور كبير فى نشر الإسلام منذ القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى)، كما ذكر ابن حوقل [3] أن ملك أودغست تيبوتان، كان شديد الحماس فى نشر الإسلام بين قومه وبين الزنوج المجاورين من ناحية الجنوب [4] .

وكان للفتح الإسلامى لبلاد المغرب أثره الكبير فى دفع المسلمين شمالا حتى الأندلس وفرنسا وجنوبا حتى بلاد السودان . ورووا أن حملة إسلامية فى عام ١٠٢ هـ/ ٧٢٠م، توجهت إلى السنغال وعادت بكميات كبيرة من الذهب وكانت أصلا موجهة إلى مطاردة البربر [5] .

كما ينقل مرفين هسكيت عن ابن عبد الحكم المتوفى سنة ٢٥٧ هـ/ ٨٧١م أن الحملة قد نفذت فى القرن الأول الهجرى / السابع الميلادى، من جنوبى المغرب إلى داخل السودان وقد قدر لها النصر المظفر، وأخذت كمية كبيرة من الذهب ويبدو أنه خلال هذه الحملة أسر المغيرون الجوارى من زنانتة، ورجعوا بهن إلى بلادهم [6] .

---

(١) هو أبو عبيد الله بن عبد العزيز البكرى ولد سنة ٤٣٢ وتوفى ٤٨٧ هـ ومن تصانيفه كتاب (المسالك والممالك) وكتاب (المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب) .

(٢) M. Hiskitt. The Development of Islam in West Africa, p.19.

(٣) هو محمد بن على حوقل النصيبى البغدادى الموصلى (أبو القاسم) رحالة جغرافى . توفى بعد سنة ٣٦٧ هـ ومن آثاره (المسالك والممالك) معجم المؤلفين، ج ١١، ص ٥ .

(٤) دولة مالى الإسلامية (الهيئة المصرية العامة للكتاب)، ص ٤٧ ، إبراهيم على طرخان .

(٥) المصدر نفسه، ص ٤٨ .

(٦) M. Hiskitt. The Development of Islam in West Africa, p.19.

ويروى ابن خلدون عن حملة عقبة بن عامر بن عبد قيس إلى السودان قائلا: (فقد فتح عقبة عامر بن عبد قيس باسم عمرو بن العاص مدينة غدامس التى كانت بوابة النيجر الشرقية سنة ٣٦ هـ/٦٣٣م. وفى السنة التالية افتتح ودان وكوار فى السودان وأثخن فى تلك النواحى وكان له جهاد وفتوح)[١]. ويذكر ابن عذارى المراكشى[٢] أن عقبة انحدر فى حملته الثانية إلى السودان من بلاد المغرب ووصل إلى غانة عن طريق ودان وبنى مساجد فيها.

واعتمادا على المقارنة بين المصادر يتبين أن عقبة قام بحملتين إلى السودان إحداهما من تونس والثانية من المغرب. ولا نجد فى أى مصدر أخبار قتال أو حصار فى هاتين الحملتين معا، مما يدل على استجابة الأفارقة لدعوة الدين الجديد عن طواعيه واقتناع، وهو ما علله بعض الباحثين بقوله: ونحن نرجح أن وجود قبائل بربرية وفيرة ومتنفذة فى الصحراء والسودان فضلا عن خصائص الدين الجديد وروحه التحريرية مما خلق جوا مناسبا لوصول الفاتح العربى إلى أهدافه الروحية. والثابت أن حملة عقبة أسهمت فى هداية أغلب قبائل غانه إلى الدين الجديد كما فتحت أعين حكام شمال إفريقية على إمكانات السودان[٣]، كما يذكر فى معرض حديثه عن المدن ذات الأهمية التجارية فى إمبراطورية غانه مدينة «هنيشين» التى ضمت جالية عربية هى بقايا الجنود الذين سبق لخلفاء بنى أمية فى الأندلس أن وجهوهم إلى السودان فتخلفوا وتزوجوا سودانيات[٤] غير أنه لا يذكر مصدره القديم فى هذه الرواية، وهى لا تتفق ورواية البكرى التى يقول فيها «وببلاد غانه قوم يسمون بالهنيهين من ذرية الجيش الذى كان بنو أمية

---

(١) بداية الحكم المغربى فى السودان الغربى، محمد الغربى، (الكويت: طبعة مؤسسة الفليح للطباعة والنشر)، ص ٣٢.

(٢) البيان المغرب فى اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، تحقيق كولا وبروفينصال، ج١، ص ٢٧.

(٣) بداية الحكم المغربى فى السودان الغربى ص ٣٢.

(٤) المصدر نفسه، ص ٣٥.

أنفذوه إلى غانة فى صدر الإسلام وهم على دين أهل غانه إلا أنهم لا ينكحون فى السودان ولا ينكحونهم فهم بيض حسان الوجوه» [١].

ويتضح لنا اختلاف الروايتين القديمة والحديثة ففى حين تنفى الرواية القديمة المصاهرة والمناسبة بينهم وبين السودانيين وإن تحولوا إلى دينهم يثبت الباحث الحديث المصاهرة ويتوقف عن ذكر أحوالهم الدينية، ونحن لا نستطيع أن نرجح رؤية الدارس الحديث وإن كانت أقرب إلى المنطق، لأنه لم يزودنا بمصدر قديم نعتمد عليه. وعلى أى حال، فإن كثيرا من المراجع الغربية تحدثت أيضا عن توغل جيش عقبة بن نافع فى إفريقيا الغربية واحتلاله بلاد التكرور وغانه، وإن أبدى بعضهم تحفظه وعدم ارتياحه إزاء الروايات الناطقة بذلك [٢].

ويصف البكرى غانه قائلا: «ومدينة غانا» مدينتان سهليتان، إحداهما المدينة الإسلامية، التى يسكنها المسلمون وهى مدينة كبيرة فيها اثنا عشر مسجدا ولها الأئمة والمؤذنون وفيها فقهاء وحملة العلم وحواليها آبار عذبة وعليها يعتملون الخضراوات [٣]. كما ذكر القلقشندى إسلام أهل غانه بقوله: «وكان أهلها قد أسلموا فى أول الفتح [٤].

ومجمل القول أن الأدلة على دخول الإسلام وانتشاره فى السودان الغربى خلال هذه الفترة المبكرة أى من سنة ٢٦ هـ/٦٤٧م التى كانت نقطة تحول إسلامى أصبحت واضحة للعيان. كانت هذه الأدلة تعتمد أولا على الروايات الشفوية المتواترة عن التجار المسلمين والرحل الذين كانوا يجوبون تلك المناطق للتجارة أو الإطلاع، الأمر الذى لا يترك مجالا للشك أمام الباحث للاعتقاد بأن التأثير الإسلامى فى السودان الغربى قد بدأ بعيد انتصار المسلمين واستيلائهم على مصر وإن كان لا يمكن تقدير مدى هذا التأثير.

---

(١) مغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب البكرى، دى سلان، (الجزائر) ص ١٧٩.

(٢) مثل الرحالة الإنجليزى بارت فى كتابة: Travels in Central Africa. V.iv. p.80.

(٣) المغرب للبكرى، ص ١٧٤ – ١٧٥.

(٤) صبح الأعشى، ج٥ ص ٢٨٤.

وفى وصف البكرى لمدينة غانه والمساجد الموجودة فيها، كذلك تأكيد مؤرخ بلاط صنغاى أحمد بابا التمبكتى ما يرشح هذه الحقيقة من أن الإسلام دخل هذه المنطقة منذ فجر تاريخه إذ لا يعقل أن تكون تلك المدينة الإسلامية التى تضم اثني عشر مسجدا في تلك الفترة المبكرة قد ظهرت إلى الوجود وقامت على ذلك الشكل المتطور وشيدت فيها المساجد الاثنى عشر بين عشية وضحاها. أضف إلى ذلك أنها كانت إبان تلك الفترة المبكرة موطنا لعدد كبير من فقهاء المسلمين وعلمائهم. كما كانت فى الوقت نفسه كعبة علم يقصدها طلبة العلم وينسلون إليها من كل حدب وصوب.

على أن الفضل فى ازدياد انتشار الإسلام فى السودان الغربى يرجع إلى الجهود المضنية التى بذلتها الدول والممالك الإسلامية التى قامت فى تلك المنطقة، ولعل أول مملكة إسلامية يسجل التاريخ إسهامها فى هذا المضمار هى مملكة صنهاجة الجنوب أو اللثام. فقد اتحدت هذه القبيلة مع قبائل لمتونة وجدالة فى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى، للعمل على تنظيم تجارة القوافل عبر الصحراء فيما بين أقصى الشمال حيث تنزل قبيلة ولاته، وأقصى الجنوب حيث تقع مملكة غانه. إلا أن هذا التحالف لم يدم طويلا إذ وهنت أواصره فتفرقت كلمة القبائل البربرية فى حين كانت الفرصة مهيأة أمام مملكة غانه القديمة للازدهار والسيطرة على بعض أجزاء الصحراء التى تؤمها قوافل العرب والبربر. فلما دخلت صنهاجة فى نعمة الإسلام فى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى تسرب الدين الحنيف عبر الصحواء وعم المراكز التجارية الموجودة هناك، واتسمت مدينة «أودغست» التى كانت المركز الأمامى لتجارة غانه على حافتها الشمالية بالطابع الإسلامى. وتحت لواء هذا الدين الذى يدعو إلى الاعتصام بحبل الله استطاعت قبائل صنهاجة أن تكوّن تحالفا جديدا تزعمته لمتونة بفضل الجهود التى بذلها الزعيم اللمتونى «تبولتان بن تكلان» الذى شرح الله صدره للإسلام.

وكان الهدف من هذا التحالف هذه المرة هو الجهاد فى سبيل الله ونشر الإسلام فى السودان الغربى [1].

ونظرا لأهمية مملكة غانة السياسية والاقتصادية والعسكرية رأى الحلف أن يوجه سهامه إليها وخاصة أنها كانت أقرب مملكة وثنية إليهم. أضف إلى ذلك أن الضعف بدأ يدب فى عظام هذه المملكة السودانية الفتية بعد بلوغها أوج عزها وقوتها الاقتصادية والعسكرية وبالقضاء على هذه المملكة العظيمة التى وصفها ابن خلدون بقوله « كانوا أعظم أمة ولهم أضخم ملك » [2] يصبح الطريق ممهدا لفتح الممالك السودانية الأخرى ليسرى الإسلام بين قبائلها الوثنيين فجهزت صنهاجة جيشا جرارا لغزو المملكة فتوجه الجيش صوب مدينة « أودغست »، عاصمة غانه. وما أن سمع ملك غانه خبر الجيش الصنهاجى حتى جهز جيشا مماثلا لقتاله دفاعا عن مدينته الحيوية تجاريا والتى تمثل مصدرا اقتصاديا مهما لا يمكن للمملكة الاستغناء عنه. فتقابل الجيشان فى معركة أسفرت عن انتصار الجيش الصنهاجى. ولم يكن لينتصر عليها مستوليا على مدينة أودغست لولا ما وقع لغانه من سوء حظ إذ أغار عليها شعب « صوصو » الذى تقع دياره إلى الجنوب من ديار « غانه » فطعنها من الخلف طعنة غير متوقعة فكان على المملكة أن تحارب عدوين شرسين فى آن واحد. فقد أغار عليها شعب صوصو من الجنوب فى الوقت الذى أغار عليها الملثمون من الشمال [3] فسقطت مدينة أودغست أمام الملثمين بفضل ما قدمه شعب « صوصو » من دعم لهم إما ميلا إلى الإسلام وإما كراهية لغانه نظرا لسيطرتها على الممالك السودانية الأخرى أو على مدينة أودغست التى تمثل مركزا تجاريا مهما تمر به صادرات إفريقيا الغربية ووارداتها عبر الصحراء الكبرى. واتخذت صنهاجة مدينة أودغست عاصمة لمملكتهم. ومنها أخذوا ينشرون الإسلام فى المنطقة الواقعة شمالى نهر النيجر. ووصف ابن خلدون

---

(١) الثقافة العربية فى نيجيريا ص ١٩ .

(٢) العبر جـ ٦ ص ٤١٢، لابن خلدون (طبعة دار الكتاب اللبنانى) .

(٣) الثقافة العربية فى نيجيريا، ص ٢٠ .

هذه المملكة بأنها كانت مسيرة شهرين فى مثلها. كما وصف ملكها «تبولتان» بأنه كان يركب فى مائة ألف نجيب [١].

وبعد وفاة الزعيم اللمتونى استمر الملك فى أعقابه حتى عام ٣٠٦ هـ حين تبدد شمل الحلف وتفرقت قبائل البربر [٢]. وانتهزت غانة فرصة هذا التفرق لبسط نفوذها من جديد على أورغست إلا أنها لم تقدر على استرداد جميع أملاكها السابقة بعد أن استقرت قبائل الملثمين فيها فاكتفت بالسيطرة على المدينة التجارية المهمة ولا شك أن ذلك يكفل لها التحكم فى طريق التجارة بين المغرب والسودان وهو ما يدر عليها أرباحا طائلة وذلك هو المبتغى.

ولم يدم عامل الفرقة بين الملثمين طويلا فقد استطاعت لمتونة بفضل جهود الأمير بروتان وبستو أن تلم شعث الملثمين مرة أخرى للهجوم على أودغست لتقصى عنها سلطة غانة وتحولها عاصمة لها مرة أخرى وتم ذلك عام ٣٥٠ هـ.

غير أن لهيب الصراع ظل يتطاير شرره بين غانه وبين الملثمين فما كان لغانه أن تهدأ ثائرتها حتى تسترد مدينة أودغست التى تعد قضية استردادها قضية حياة أو موت، وما لبث أن استردت المدينة مرة أخرى وتفرقت قبائل الملثمين. وهكذا ظلت مدينة أودغست تحت سيطرة غانه حتى استولى عليها المرابطون فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى فردوها إلى الملثمين. فقد قدر ليحيى بن إبراهيم شيخ قبيلة جدالة أن يؤدى فريضة الحج مع بعض الصنهاجيين عام ٤٥٦ هـ/ ١٠٣٥م. وإثر رحلته تلك التى أراد من ورائها أن يستنير ويستزيد من تحصيل العلم بعد أن ضاق ذرعا بما يعيش فيه قومه من الجهالة وسوء فهم مبادئ الإسلام، عهد بأمور القبيلة إلى ابنه وأخذ يتجول فى بلاد المغرب طلبا للمعرفة حيث وقف على أصول الإسلام القويمة فعقد العزم على أن ينشرها بين الملثمين.

---

(١) العبر جـ ٦ ص ٣٧٢.

(٢) العبر جـ ٦ ص ٣٧٢.

وبعد عودته من رحلة الحج أدرك أنه لا يستطيع مباشرة هذه المهمة الشاقة بمفرده لانشغاله بأمور القبيلة .

ومن هنا رأى ضرورة البحث عن فقيه يعلم قومه الإسلام ليخلصهم من الاعتقادات الخاطئة فتوجه صوب القيروان المركز الإسلامى العام حيث شعر بالبون الشاسع بين البيئتين بيئة المغرب الأقصى الزاخرة بالحياة العقلية الرفيعة وبيئة الصحراء التى تنغمس فى الجهل فاتصل بشيخ المالكية فى القيروان أبى عمران الفاسى ملتمسا منه انتداب تلميذ له يرجعون إليه فى نوازلهم وقضاياهم الدينية . وحرصا من الشيخ على إيصال الخير إليهم وجههم إلى تلميذه « وجاج ابن زلو اللمطى » وانتدب لهم هذا الأخير تلميذه الفقيه الورع المجاهد المقدام « عبد الله بن ياسين بن مكو الجزولى » فاستجاب لهذه الدعوة مكرسا جهده لهداية هؤلاء الناس يعلمهم القرآن ويقيم لهم الدين .. [1] إلا أن طابع التشديد الذى انطبع به عبد الله بن ياسين قد نفر القوم عنه فقرر أن يهجرهم إلى جزيرة على ضفاف نهر السنغال بقصد الانقطاع لله والسياحة مستصحبا يحيى بن إبراهيم وسبعة من رجال جدالة [2] . غير أن البربر الذين أعرضوا عنه لعنفه قد شعروا بوخزة الضمير فجاءوا إليه يلتمسون منه العفو مبدين استعدادهم التام لتلقى تعاليمه الدينية وتنفيذ أوامره ومن ثم اجتمع حول عبد الله بن ياسين فى رباطه الذى اتخذه فى تلك الجزيرة زهاء ألف شخص سماهم المرابطين [3] . وبعد أن اكتمل له هذا العدد الضخم من الرجال الأقوياء بإيمانهم مال الناس إليه وحمل الكافة عليه فاخرجوا بنا لذلك ، فخرجوا قتلوا من استعصى عليهم من قبائل

---

(١) العبر جـ ٦ ص ٣٧٤ .

(٢) تاريخ المغرب العربى فى العصر الوسيط ، الوزير لسان الدين الخطيب الغرناطى ، (طبعة دار الكتاب) ، ص ٢٢٧ – ٢٢٨ .

(٣) تاريخ الدول الإسلامية السودانية بإفريقية الغربية ، عبد الرحمن زكى ، (المؤسسة العربية الحديثة) ص ٣٢ .

لمتونة وجدالة ومسوفة حتى أنابوا إلى الحق. وأذن لهم فى أخذ الصدقات من أموال المسلمين وسماهم المرابطين (١).

ولعل أهم ما قال به المرابطون خدمة للإسلام فى السودان الغربى هو هجومهم على مدينة أودغست التى كانت «غانة» قد استردتها من الملثمين. فقد استطاع المرابطون أن ينتصروا على «غانة» بعد معركة استبسل فيها الفريقان واستشهد فيها قائد المرابطين «يحيى بن عمر» وانتهت باستيلاء المرابطين على «أودغست» وكان ذلك سنة ٤٤٧ هـ/١٠٢٦م، وقد علل بعض المؤرخين هزيمة غانة بأن ملك التكرور الذى شرح الله صدره للإسلام قد حالف المرابطين وخاض غمار الحرب إلى جانبهم (٢).

أما «غانه» فمن المعروف أنها كانت أكبر إمبراطورية إفريقيا قامت بغربى إفريقيا وكان أول سلاطينها هو «تيمغ» وأن سلطة غانة قامت قبل البعثة المحمدية بزمن طويل تملك فى أثنائه اثنان وعشرون ملكا ثم تملك بعدها اثنان وعشرون آخرون (٣). وكان حكامها الأوائل بيضانا فى الأصل (٤)، وإن كانت الأصول التى يرجعون إليها لا زالت لغزا أعيا الباحثين حله ولا يزالون مختلفين.

واشتهرت هذه الإمبراطورية بعظمة قوتها العسكرية والاقتصادية وبرفاهية ملوكها وثرائهم وبذخهم. على أن دولة ملوكها البيض سقطت فى نهاية القرن الثانى الهجرى، الثامن الميلادى حيث قامت أسرة «السوننك» بثورة ضدها وتأسست دولتهم على أنقاضها. وفى زوال دولة الحكام البيض يقول أحد المؤرخين:

---

(١) العبر جـ٦ ص ٣١٨.

(٢) راجع: الثقافة العربية فى نيجيريا، ص ٢٥.

(٣) راجع: تاريخ الفتاش، للقاضى الفع محمود كعت، تحقيق هوداس وبونوا (باريس: ١٩٦٤م) ص ٤١.

(٤) تاريخ السودان، السعدى، (باريس، نشر هوداس، ١٨٩٨م) ص ٩.

« ثم أفنى الله ملكهم وسلط أراذلهم على كبرائهم وقتلوا جميع أولاد ملوكهم حتى أنهم بقروا بطون نسائهم وأخرجوا الأجنة وقتلوهم » [1].

وبعد أن تبدد شمل الحكام البيض اتجهت بقية فلولهم مع أنصارهم إلى بلاد « التكرور » فاختلطوا هناك بالتكاررة، فلم يعودوا بيضا كما كانوا، بل أصبحوا أشبه بالزنوج منهم بالبيض.

ويروى أنهم نجحوا في التحكم السياسي في منطقة « تكرور » فظلوا هناك أصحاب النفوذ حتى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى عندما ثارت ثائرة « التكاررة » فسحبوا بساط الحكم من تحتهم وطردوا هؤلاء المغتصبين الدخلاء.

ويذكر أن هؤلاء البيض هم الذين اشتهروا فيما بعد باسم « الفلانيين » وقد حكم خلفهم من الأسرة السوننكية إمبراطورية « غانة » حتى مطلع القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى باستثناء الفترة التي استولى خلالها المرابطون على عاصمة « غانة » من عام ٤٩٧ – ٤٩٩ هـ / ١٠٧٦ – ١٠٧٨م. وفى عهد هذه الأسرة بلغت الإمبراطورية أوج قمتها وذروة مجدها وازدهرت اقتصاديا وعسكريا [2].

وقد اشتملت هذه الإمبراطورية على منطقة واسعة من الحدود المتاخمة لجنوبى الصحراء الكبرى شمالا وامتدت جنوبا إلى مناجم الذهب فى « بمبوك » ومن نهر النيجر فى الشرق إلى المحيط الأطلنطى غربا. وهذه المنطقة تشكل حاليا جزءا من جمهورية موريتانيا وكلا من جمهوريتى السنغال ومالى [3].

وقد دان لهذه الإمبراطورية بالولاء عدد كبير من ملوك السودان الغربى إبان عزها وقوة سلطانها ولا نبلغ حد الشطط إذا قلنا إن غالبية ملوك هذه المنطقة كانوا

---

(١) تاريخ الفتاش ص ٤٢.
(٢) إمبراطورية غانة الإسلامية، لإبراهيم طرخان ص ٢٧.
(٣) P.B. Clarke, West Africa and Islam, p.37.

يدينون لها بالولاء التام، ويؤيد ذلك قول ابن خلدون: «كانوا أعظم أمة وأضخم ملكا» [١].

وعلى الرغم من أن المعارك العديدة التى خاضتها «غانة» مع دولة صنهاجة اللثام ودولة المرابطين إلا أن هاتين الدولتين لم تستطيعا أن تحملا ملوك «غانه» على الإسلام عنوة. والسبب فى ذلك يرجع إلى أنه لم تقدر أية واحدة منهما على سحق قوة غانة العسكرية والاستيلاء على جميع أراضيها، وقد رأينا فيما سلف عن الدولتين الصنهاجية والمرابطية كيف أن كل واحدة منهما لم تزد على الاستيلاء على مدينة «أودغست» عاصمة «غانة» وكيف أن «غانة» لا تلبث أن تستردها وإن كانت الدلائل تشير إلى أن «غانة» لم تستطع أن تسترد عاصمتها الحيوية بعد استيلاء المرابطين عليها عام ٤٨٨ هـ/١٠٧٦م.

وها هو ذا البكرى يصف غانة وملوكها فى العصر الذهبى، فيقول: «إن اسم ملك «غانة» فى سنة ٤٦٠ هـ/ ١٠٣٩م «تنكامينين» الذى ولى سنة ٤٥٥ هـ/ ١٠٣٤م وكان اسم الملك قبله «بسى» الذى ولى وهو ابن خمس وثمانين سنة وكان محمود السيرة محبا للعدل مرثدا للمسلمين» [٢].

أما عن عاصمتها فهى مدينة «أوكار» التى تحول إليها الملك بعد سقوط «أودغست» فيقول فيها: «ومدينة غانه مدينتان سهليتان إحداهما المدينة التى يسكنها المسلمون وهى مدينة كبيرة فيها اثنا عشر مسجداً أحدها يجمعون فيه. ولها الأئمة والمؤذنون والراتبون وفيها فقهاء وحملة علم. ومدينة الملك على ستة أميال من هذه وتسمى بالغابة والمساكن بينها متصلة ومبانيهم بالحجارة وخشب السنط» [٣].

وعلى الرغم من وثنية الملك إلا أنه كان يحترم المسلمين ويكرمهم ويتخذ

---

(١) العبر جـ٦ ص ١٤٩ .

(٢) المغرب ص ١٧٥.

(٣) المصدر نفسه .

منهم بعض خاصته وآية ذلك أنه ابتنى مسجدا فى مدينته يصلى فيه من يفد عليه من المسلمين، يقول البكرى:

«وفى مدينة الملك مسجد يصلى فيه من يفد عليه من المسلمين على مقربة من مجلس الحكم».

وفى تصوير البكرى للحياة الاجتماعية ما لا يدع مجالا للشك فى أن الإسلام قد انتشر فى ربوع الإمبراطورية على الرغم من تمسك الملك نفسه بالوثنية. وليس أدل على ذلك من كون «تراجمة الملك من المسلمين وكذا صاحب بيت ماله وأكثر وزرائه».

ويصور البكرى الميزة التى كان يتمتع بها المسلمون تحت مملكته دون غيرهم. وتلك الميزة فى التقاليد المرعية فى السلام على الملك فيقول: «فإذا دنا أهل دينه جثوا على ركبهم ونثروا التراب على رؤوسهم فتلك تحيتهم له، وأما المسلمون فإنما سلامهم عليه تصفيق باليدين [1].

وهنا يجدر بنا أن نرد على المؤرخ الغربى زعمه الخاطئ بأن ملوك «غانة» قد حملوا على الإسلام عنوة عند استيلاء المرابطين على «أورغست» [2]. وهو زعم يفتقر إلى دليل ويستند إلى أساس واه. إذ أنه لو كان خروج «أودغست» من أيديهم يحملهم على اعتناق الإسلام لاعتنقوه من القرن الثالث الهجرى/التاسع الميلادى حين استولى الزعيم اللمتونى «تبولتان بن تبكلان» على المدينة للمرة الأولى ولكنهم لم يسلموا بل حولوا عاصمتهم إلى «أوكار» التى تقع على مسافة خمسة عشر يوما فى الجنوب، فإذا كان المرابطون لم يزيدوا على الاستيلاء على «أودغست» فليس هنالك ما يحمل ملوك «غانة» على اعتناق الإسلام لأنهم لم يفقدوا إلا جزءا صغيرا من مملكتهم وإن كان حيويا جدا من الناحية الاقتصادية للدولة [3]. ومن الصعوبة بمكان تحديد الوقت الذى أسلم فيه ملوك «غانة»

---

(١) يراجع: كتاب المغرب ص ١٦.

(٢) Hoben, The Mohammad Emirates, p.29 .

(٣) الثقافة العربية فى نيجيريا ص ٣٠.

وذلك لعدم تحديده في المراجع التي بأيدينا. فالزهري الذي كان كتابه بعد كتاب البكري يذكر أن ملوك «غانة» كانوا مسلمين في القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي [1].

والإدريسي الذي كتب بعد أن أسلموا تحدث عن كونهم مسلمين فقط ولم يشر إلى الوقت الذي أسلموا فيه [2].

وقد بدأ الضعف يسري في أواصر مملكة «غانة» منذ هزيمتها على أيدي المرابطين ومنذ انفلت من يدها زمام مدينة «أودغست» ذات الحيوية الاقتصادية والتي تمر بها صادرات وواردات السودان الغربي من ذهب وقطن وجلود وصمغ وعاج وعسل وذرة إلى أقطار شمالي إفريقيا وبفقدان هذه المدينة فقدت «غانة» أكبر مورد من مواردها. وبتضاؤل اقتصاديات الدولة أخذ الضعف يدب في عظامها شيئا فشيئا حتى انتهى بها الحال إلى سقوطها عام ٦٦١ هـ/ ١٢٤٠م على يد ملك صوصو الذي أغار عليها عدة مرات وأخيرا تم له الاستيلاء على العاصمة «أوكار».

ومع أن هذا الملك لم يستطع أن ينشئ مملكة كبرى بتحطيم مملكة «غانة» فإنه مهد الطريق لقيام دولة «مالي» التي قامت بدور بارز في نشر الإسلام في السودان [3].

وهنا يتحتم علينا أن نؤكد حقيقة ثابتة لا تقبل الجدل، وهي أن أهمية هذه المملكة تتركز في أمرين اثنين ساعدا على انتشار الإسلام في كثير من بلاد إفريقيا الغربية وهما:

أولا: عدم صد هذه المملكة رعاياها عن اعتناق الإسلام وترك الحرية

---

(١) نقلا عن كتاب P.B Clarke. West Africa and Islam, p.18.

(٢) المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، الشريف الإدريسي، (ليدن ١٨٩٤) ص ٦.

(٣) الثقافة العربية في نيجيريا ص ٣٢.

الكاملة لهم لممارسة شعائرهم الدينية ومنح المسلمين بعض الامتيازات التى لا يتمتع بها الوثنيون الذين هم على دين الملك.

ثانيا: ما يذهب إليه عدد كبير من المؤرخين من أن حكام هذه المملكة هم أصل الشعب الفولانى الذى قام بدور كبير فى نشر الإسلام والثقافة العربية فى كثير من بلاد إفريقيا الغربية [(١)].

أما (مالى) أو (ملّ) كما تسمى أحيانا، فهو الاسم الذى أطلق على المملكة التى أسسها قبائل (السوننك) أو (المالنك) فى منحنى النيجر. وكانت قديما تحت حكم أسرة (كيتا).

ويحيط الغموض تاريخ نشأتها لخلو المصادر المعتمدة فى تاريخ السودان الغربى منه وكانت ذات يوم جزءا من إمبراطورية (غانه) وإن كانت تتمتع باستقلال ذاتى [(٢)].

وكان من بين ملوكها ملك أسلم على يد شيخ طيب إثر محنة كادت تفنى البلاد والعباد. ولكنها انجلت بفضل دعاء هذا الشيخ المسلم. ولنترك المجال للبكرى كى يحدثنا عن هذا الحدث الجليل:

(عرف ملك «مالى» بالمسلمانى لأن بلاده أجدبت عاما بعد عام فاستقوا بقرابينهم من البقر حتى كادوا يفنونها وكان عندهم ضيف من المسلمين يقرئ القرآن ويعلم السنة. فشكا إليه الملك ما دهمهم من ذلك فقال:

أيها الملك لو آمنت بالله تعالى وأقررت بوحدانيته وبمحمد عليه الصلاة والسلام وأقررت برسالته واعتقدت شرائع الإسلام كلها لرجوت لك الفرج مما أنت فيه وحل بك. وأن تعم الرحمة أهل بلدك وأن يحسدك على ذلك من عاداك وناوأك.

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) M.Hiskett. The Development of Islam in West Africa, p.28 .

فلم يزل به حتى أسلم وأخلص نيته وأقرأه من كتاب الله ما تيسر عليه. وعلمه من الفرائض والسنن ما لا يسع جهله ثم أمهله إلى ليلة جمعة فأمره فتطهر فيها طهرا سابغا وألبسه ثوب قطن عنده وبرزا إلى ربوة من الأرض فقام يصلى والملك عن يمينه يأتم به. فصليا من الليل ما شاء الله والشيخ يدعو والملك يؤمن فما انفجر الصباح إلا والله قد أعمهم بالسقى. فأمر الملك بكسر الدكاكير (أى الأصنام) وأخرج السحرة من بلاده. وصح إسلامه وإسلام عقبه وخاصته وأهل مملكته مشركون فوسموا ملكهم منذ ذلك الوقت بالمسلمانى) [1].

ومع أن البكرى لم يذكر لنا اسم هذا الملك ولا اسم العالم المسلم الذى كان له الفضل بعد الله فى إسلام الملك إلا أن وجود داعية مسلم ينهض بأعباء الدعوة إلى الله ببلاد هذا الملك يؤكد لنا أن الإسلام لم يكن غريبا فى (مالى) أثناء هذا الحدث.

ولكن القلقشندى يذكر اسم أول من أسلم من ملوك (مالى) فيقول: (وكان ملوك «مالى» قد دخلوا فى الإسلام منذ زمن قديم وأول من أسلم منهم ملك اسمه «برمندانه» وحج بعد إسلامه فاقتفى به فى الحج من جاء بعده من الملوك) [2].

أما المقريزى فيقول: (ويقال أن من أسلم منهم ملك اسمه «سرمندانه» ويقال «برمندانه» [3]. وتميز ابن خلدون بالدقة القصوى عندما تحدث عن إسلام أهل «مالى» وملوكها فقال: (... ودخلوا فى دين الإسلام منذ حين من السنين وحج جماعة من ملوكهم وأول من حج منهم «برمندار» وسمعت فى ضبطه «برمندانه») [4].

---

(١) المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ١٧٨.

(٢) صبح الأعشى جـ ٥ ص ١٩٣.

(٣) الذهب المسبوك، المقريزى، (مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر) ص ١١٠.

(٤) العبر جـ ٢ ص ٤١٣.

إذ لا يعنى بالضرورة أن يكون أول من حج من ملوكها أول من أسلم منهم وخاصة أن هناك رواية شفوية مؤداها أن مؤسس أسرة الترورين فى حكم «مالى» واسمه (منسا نوفن تراورا) قد اعتنق الإسلام. ولربما كان هذا الملك أو غيره ممن سبقه أو ممن جاء بعده هو المعنى فى عبارة البكرى [١].

ومهما يكن من أمر فإن الإسلام فى هذه المملكة قديم قدم تاريخ دخوله فى السودان الغربى. وتعد مملكة (مالى) أقوى وأغنى الممالك السودانية التى ظهرت فى السودان الغربى ويميزها من غيرها ذلك الدور الرائد الذى نهضت به من أجل توحيد القبائل الزنجية داخل ولايات وكذا الدور البارز الذى اضطلعت به من أجل نشر الإسلام والدعوة له فى جميع بلاد المنطقة [٢].

هذا وقد مرت هذه المملكة بمراحل متعددة بين مد وجزر ولكن تاريخها الذهبى يبدأ بتاريخ مؤسسها الحقيقى (سندياتا) أو (مارى جاطة) سنة ٦٥١ - ٦٧٦ هـ/ ١١٣٠ - ١٢٠٠م.

وممن جاء بعد هذا الملك (منسا موسى) ويعد موسى أعظم ملوكها وفى عهده بلغت المملكة أوج مجدها وعزها وامتدت حدودها من بلاد (التكرور) غربا إلى (دندى) شرقا ومن (ولاته) شمالا، إلى مرتفعات (فوتا جالون) جنوبا، و(ولاته) أو (أيولاتن) هو الاسم الذى أصبح يطلق على ما كان يعرف (بغانة) [٣].

وكان أسلاف منسا موسى يحجون البيت الحرام كل عام ولكن زيارة منسا موسى للأراضى المقدسة سنة ٧٥٥ هـ/ ١٣٢٤م كانت فريدة من نوعها من حيث الأبهة. وكتب التاريخ مليئة يذكر أحداث هذه الرحلة التى كانت من نتائجها أن انخفض سعر الذهب فى أسواق القاهرة بسبب إغراقها بذهب السودان.. ولسبب

---

(١) راجع دولة (مالى) ص ٥٢.

(٢) دولة (مالى) ص ٢٥ و The Development of Islam in West Africa .

(٣) الثقافة العربية فى نيجيريا ص ٣٥ .

كثرة الذهب فى أيدى الناس. ولم يرتفع سعر الذهب بعد ذلك لمدة سنوات طويلة [1] .

ومن خلال هذه الرحلة اشترى السلطان موسى كتبا عديدة فى الفقه على مذهب الإمام مالك فى مصر واستصحب معه كثيرا من العلماء والفقهاء إلى بلاده ومن ضمنهم المهندس الأندلسى الشاعر أبو إسحاق الساحلى [2] . وقد شيد له المهندس المذكور عمائر ومساجد أضفت على بلاده طابعا إسلاميا متميزا فى مجال فن العمارة.

ومن خلف هذا الملك (منسا سليمان) الذى ولى الحكم لمدة أربع وعشرين سنة وفى عهده زار ابن بطوطة مملكة (مالى) . وقد بنى (منسا سليمان) المساجد والمدارس وجلب إلى بلاده الفقهاء من مذهب الإمام مالك [3] .

يقول ابن بطوطة : « فمن أفعالهم الحسنة قلة الظلم فهم أبعد الناس عنه، وسلطانهم لا يسامح أحدا فى شئ منه، ومنها شمول الأمن فى بلادهم فلا يخاف المسافر إليها ولا المقيم فيها سارقا أو غاصبا [4] . وعن محافظتهم على الصلوات وملازمتهم لها فى الجماعات، يقول :

« منها مواظبتهم على الصلوات وملازمتهم لها فى الجماعات، وضربهم أولادهم عليها . وإن كان يوم الجمعة ولم يبكر الإنسان إلى المسجد لم يجد أين يصلى لكثرة الزحام . ومن عاداتهم أن يبعث كل إنسان غلامه بسجادة فيبسطها له بموضع يستحقه حتى يذهب إلى المسجد . ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم وهم يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر فى حقهم التقصير فى حفظه فلا يفك عنهم حتى يحفظوه » [5] .

والجدير بالذكر أن دولة (مالى) لم تكتف باعتناق الإسلام والحرص على

---

(١) دولة مالى ص ٨٤ . (٢) العبر جـ ٦ ص ٤١٥ .
(٣) تاريخ الدولة السودانية بافريقية العربية ص ١١٣ .
(٤) رحلة ابن بطوطة، ص ٦٩٨ (طبعة دار صادر بيروت) .
(٥) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٠١ .

مظاهره وعلومه فحسب، وإنما أخذت تدعو له بين الوثنيين فانتشر الإسلام بينهم وتعد هذه المرحلة أهم مراحال نشر الإسلام فى إفريقية جنوبى الصحراء حيث اقترنت جميع فتوحاتها الحربية بالدعوة الإسلامية وإلى ذلك أشار العمرى بقوله:

«وملك (مالى) فى جهاد دائم وغزو ملازم لمن جاوره من كفار السودان» (١).

وتميزت الدعوة الإسلامية فى (مالى) باتجاهين:

الأول: انتشار الدعوة فى الإمبراطورية نفسها ويتضح ذلك فى الوجود الإسلامى المتمثل فى الدعاة والعلماء والفقهاء والتجار المسلمين والحكام وإن كانت الأغلبية على الوثنية. وكان هذا الوجود قديما كما أشار إليه القلقشندى وابن خلدون فيما سبق. كما كان لهذا الوجود طابعه المميز الراقى والذى يجذب إليه أنظار خاصة القوم فضلا عن عامتهم، ومن مظاهر هذا الوجود امتزاج الشعب بالمصاهرة والاختطلاط وذوبانه فى المجتمع مع تأثرهم بالسلوك الإسلامى الممتاز مما كان له تأثيره المبكر وخاصة فى الطبقة العليا مما اقتضى إسلام أول من أسلم من الملوك فيها على يد داعية من هؤلاء فيما رواه البكرى آنفا.

ومن مظاهر هذا الانتشار أيضا عناية الملوك بابتناء المساجد فى أرجاء الإمبراطورية ومبالغتهم فى عمارتها مما أعطى للإمبراطورية طابعا حضاريا وثقافيا. وقد قيل إن السلطان (منسا موسى) كان يبنى مسجدا فى كل مدينة تدركه صلاة الجمعة فيها (٢).

رمن مظاهر الانتشار هذه كثرة المدارس فى (مالى) ملحقة بالمساجد ومستقلة عنها، وانتشرت بانتشارها لغة القرآن وعلومه وازداد الإقبال والاهتمام بحفظه ودراسته وقد ذكرنا سابقا وصف ابن بطوطة لهذه الظاهرة.

---

(١) دولة مالى، نقلا عن: مسالك الأبصار. ص ٨٦ .

(٢) تاريخ السودان ص ٧ .

أما الاتجاه الثانى، فقد تمثل فى قيام (مالى) بنشر الدعوة الإسلامية فيما جاورها من الأمم الإفريقية السودانية بأسلوبين :

الأول : حركات جهاد الوثنيين حولها ممثلة فى انتشار حاميات (مالى) العسكرية بين ساحل المحيط الأطلسى غربا إلى (كانو) فى أرض الهوسا شرقا وإلى قلب الأدغال فى الجنوب . وتوغلت شمالا فى الصحراء وأصبحت (مالى) أقوى دولة فى السودان الغربى لها بأس شديد وسيادة ونظم ورسالة هى رسالة الإسلام تنشرها، وإلى ذلك يشير العمرى بقوله :

(ملك « مالى » فى جهاد دائم وغزو ملازم لمن جاوره من كفار السودان) [1] .

وتمثل الأسلوب الثانى فى الحركة السلمية بإيفاد العلماء والدعاة للدعوة إلى الله .

ومن تلك الوفود الوفد الذى وصل إلى (كانو) وكان يضم أربعين رجلا من (الماندنجو) بقصد الدعوة إلى الله وذلك فى فترة منتصف القرن الثامن الهجرى ونهايته [2] .

وبدأت أمور الدولة تضطرب وانتهت (مالى) كإمبراطورية إسلامية – سنة الله فى خلقه – وكان العامل القوى فى التعجيل بتقويضها ووراثتها دولة (صنغاى) التى كانت تحت حكمها واستقلت عنها وحاربتها فملكتها ووسعت رقعتها [3] .

وعلى الرغم من سقوط مملكة (مالى) فإن جهود أفراد شعبها فى نشر الإسلام لم تتعثر ولم تتأثر بانهيار الدولة .

---

(١) انظر : الدعوة الإسلامية فى غربى إفريقية وقيام دولة الفلانى، حسن عيسى عبد الظاهر، (طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية) ص ١٠٤ .

(٢) لمزيد من التفصيل راجع : الثقافة العربية فى نيجيريا، ص ٣٩ .

(٣) الدعوة الإسلامية فى غربى إفريقية وقيام دولة الفلانى ص ١١١ .

وفي عهد ملك (كانو) يعقوب الذى تولى الملك سنة ٨٧٣ هـ / ١٤٥٢م إلى سنة ٨٨٣ هـ/ ١٤٦٢م تقريبا وصل وفد آخر من (مالى) إلى كانو ولكن هذا الوفد كان يختلف عن الأول حيث كان يتألف من (الفلانيين). وقد أحضروا معهم كتب التوحيد واللغة العربية وكانت الكتب الدينية المعروفة قبل ذلك غير القرآن هى كتب الفقه والحديث. ولم يقم هذا الوفد فى (كانو) كسابقه وإنما واصل سفره شرقا إلى (برنو) تاركا وراءه أفرادا منه فى أرض الهوسا[١].

ثم قامت مملكة (صنغاى) على أنقاض (مالى) بعد أن كانت خاضعة لها. وكان أول من أسلم من ملوكها (راكس) وذلك فى سنة ٤٠٠ هـ/ القرن الحادى عشر الميلادى ويقال له (مسلم دم) ومعناه الذى أسلم طوعا [٢]. وقد مرت هذه المملكة بمراحل عديدة بين مد وجزر إلى أن حكمها (الحاج أسكيا محمد) وكان عهده مفترق الطريق فى تاريخ (صنغاى) فقد اتجه بها وجهة أخرى أقامت لها وجهها الإسلامى وكان يدين بعقائد المذهب السنى.

وتقلد حكم البلاد واستخدم طائفة من الموظفين الأكفاء ونظم الجيش واستغل ثروة سلفه فى النهوض بالشؤون الإسلامية واستردت (تمبكتو) فى عهده مكانتها بوصفها مركزا للدراسات الإسلامية [٣].

وكان هذا السلطان قد انتزع الملك من آل (سن على) بعد أن كان قائدا من قواد هذه الأسرة المالكة. غير أنه لم يكن فى ذلك بالخارج الباغى أو الطامع فى السلطة وإنما تحسس طريقه إلى ذلك فى ضوء كلمة الإسلام وحالة المجتمع فى عصره وما كان عليه (سن على) من البغى والطغيان. وشهادة ذلك تلك الأسئلة

---

(١) الثقافة العربية فى نيجيريا ص ٣٩
و The Kano Chronicles in palmer sudanese Memiors, V.III, pp.104-5.
(٢) تاريخ السودان ص ١٢.
(٣) الإسلام فيما يلى الصحراء الكبرى، ص ٦٧ - ٧٠.

التى وجهها إلى الإمام (المغيلى التلمسانى) يطلب فيها حكم الإسلام فى كثير من القضايا ومن بينها قضية انحراف المجتمع وحكامه [١].

وكان له جهد كير فى نشر الإسلام بين الوثنيين من جيرانه (الماندنجو) و(الفلانى) فى الغرب والطوارق البربر فى الشمال والهوسا فى الجنوب وكذا بلاد (الموشى) الوثنية [٢].

ثم قام برحلة إلى الحج سنة ٩١٦ هـ/١٤٩٥م فاقت ما عرف عن (منسا موسى) فى الأبهة والكرم التقى خلالها بالخليفة العباسى فطلب منه أن يجعله نائبا عنه فى (صنغاى) فأجابه الخليفة إلى ذلك وجعل على رأسه قلنسوة وعمامة.

كما التقى فى رحلته تلك بكثير من العلماء الصالحين منهم الإمام جلال الدين السيوطى. ومما يسجل له أنه كان أول من عين القضاة للفصل بين الناس وفق أحكام الشريعة الإسلامية.

وجاء (الأساكى) بعده يشجعون العلم وكان لبعضهم مكتبات كبرى يقتنى لها دائما المخطوطات والكتب الجديدة التى تصل إلى السودان من مصر والمغرب. وشاعت هناك كتب الإمام السيوطى وكان لاتصاله برجال الدين البارزين فى القاهرة كجلال الدين السيوطى وغيره وما قدموه له من نصائح وإرشادات دور بارز فى تطوير التعليم فى السودان الغربى [٣].

ثم كانت نهاية هذه المملكة الإسلامية العظمى على يد الجيش المغربى الغازى الذى أرسله الملك (أحمد المنصور الذهبى) أواخر القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى فقضى عليها وبذهابها لم تبق بعدها قوة ذات خطر فى بلاد السودان الغربى.

---

(١) الدعوة الإسلامية فى غربى إفريقية وقيام دولة الفلانى ص ١١٢ – ١١٣.
(٢) المصدر السابق.
(٣) الثقافة العربية فى نيجيريا ص ٤٥.

واستقبلت المنطقة بقدوم الغزاة عهدا جديدا من حكام القواد الغزاة والباشوات ظل حوالى قرنين أصيبت فيهما البلاد بالفتك والانحلال والخمول فكثرت الحروب الأهلية وتحطمت الإمارات الإسلامية إلا ما كان من نشاط (الباجرمى) و(الوداى) فى حوض تشاد فى منتصف القرن الحادى عشر الهجرى / السابع عشر الميلادى .

ووجدت الدعوة الإسلامية نفسها أمام حالات من الاختناق والتعويق ممثلة فى انحرافات كثيرة من حملة الإسلام لبعدهم عن مفاهيمه الدقيقة وحقائقه الوضيئة وانفصام سلوكهم عن تعاليمه السمحة ولم يجد من يقوم بتصحيح مسيرته لدى الناس ومد رواقه على الحياة وإشاعة نوره فى المجتمع .

وهكذا ترك المغاربة مرارة وحسرة فى صدور أهل السودان الغربى مما كان له أسوأ الأثر خلال الأعوام التالية . وبذلك أسدل الستار على أقسى ما تعرض له السودان الغربى من الغزو الذى جاء من الشمال .

ثم استعد لغزو أجنبى آخر قدم هذه المرة من سواحل المحيط الأطلسى ومن الجنوب . هو الغزو الأوربى الذى كانت فيه الضربة القاضية على تقاليد هذه الشعوب وقيمها وعلى ثقافتهم العربية الإسلامية [١] .

وبعد حين من الزمان قامت عدة حركات إصلاحية لنشر الإسلام وثقافته بين الوثنيين وتصحيح مفاهيمه لدى المسلمين المنحرفين . وقامت هذه الحركات بالجهاد فى سبيل ذلك بالسيف واللسان والقلم . ومن أكبر هذه الحركات حركة الشيخ عثمان بن فودى فى ممالك الهوسا الوثنية فى نيجيريا .

وقد انتصر عليهم وأقام دولة إسلامية قوامها نشر العدل بين الناس وإعدادتهم إلى العقيدة الصحيحة النابعة من كتاب الله وسنة ورسوله ﷺ . وكان

---

(١) لمزيد من التفصيل يراجع : عبد الرحمن زكى ، تاريخ انتشار الإسلام فى غرب إفريقية (دار الاتحاد العربى) ص ٦١ – ٧٣ .

لهذه الحركة الجهادية أثر كبير فى تقدم أحوال الإسلام والمسلمين ليس فى نيجيريا فحسب بل فى غربى إفريقيا كلها.

كما كانت هذه الحركة إعلاء للثقافة العربية الإسلامية فى تلك البلاد إذ لم تكن دعوة إلى الذين منحصرة فى التصوف وإنما كانت مؤسسة على حركة علمية وعلى دراسة أصيلة ذات أهداف مرسومة غير مرتجلة.

وآية ذلك ما صدر من المؤلفات العلمية القيمة فى تلك الفترة المبكرة من حركته وأولها مؤلفات الزعيم المجدد (عثمان بن فودى) نفسه، فقد ألف ما يربو عن ثلاثين كتابا وبحثا فى الفقه والسياسة والجهاد.

وكان شقيقه عبد الله بن فودى فقيها مؤرخا ولغويا نحويا وشاعرا أديبا له فى كل هذه الميادين كل طريف رائع. عرف من مؤلفاته أكثر من ثلاثة وعشرين كتابا بعضها لا يزال مخطوطا وبعضها ترجم ونشر فى اللغات الأجنبية. وكذا ابن الزعيم محمد بلو بن عثمان فقد كان أديبا وشاعرا ومؤلفا بارعا له أكثر من ستة مؤلفات بين مخطوط ومطبوع. وإلى جانب هؤلاء علماء آخرون حملوا رسالة الفكر وشعلة الحضارة الإسلامية [١].

وقد أدرك علماء الغرب من بريطانيين وفرنسيين منذ أن وطئ الاستعمار الأوربى غربى أفريقية قيمة وأهمية المخطوطات العربية التى ألفها علماء السودان الغربى فنقلوا أكثرها إلى مكتبات بلادهم. ودأبوا على بحثها ثم ترجمتها ونشرها بواسطة المعاهد العلمية عندهم. غير أنهم أغفلوا الجانب الأدبى الإبداعى منه وخاصة ما يتصل بإسهاماتهم الشعرية فى البناء الشعرى العربى الكبير المترابط الأجزاء ذى الثراء المتنوع تنوعا لا يخرجه عن سمته الأصيل وهويته الموحدة بوحدة المسلمين العقدية والفكرية والثقافية بغض النظر عن اختلاف بيئاتهم وأجناسهم وألسنتهم.

---

(١) يراجع: الثقافة العربية فى نيجيريا ص ٢٤٦ – ٢٩٧.

ومع ذلك فلا تزال هناك إلى اليوم مئات المخطوطات العربية فى ميادين العلوم والمعارف المختلفة فى مدن نيجيريا الشمالية وفى السنغال وبريطانيا وفرنسا لم تصل إليها أيدى المحققين ومن هنا ندعو الباحثين المسلمين إلى تكاتف الجهود – فى العالم الإسلامى عامة والعالم العربى على وجه الخصوص – لتحقيق هذا التراث الإسلامى السودانى المهم ونشره لخدمة الدين والعلم. وهو تراث يمثل عظمة الإسلام وتأثيره الإيجابى الرائع فيمن اعتنقوه من الشعوب غير العربية كما يمثل إسهامات علماء السودان الغربى فى إثراء مكتبة التراث العربى الإسلامى. وهى جهود لا تقل عن مستوى جهود علماء المشرق والمغرب العربيين فى تلك الحقبة من التاريخ الإسلامى. ولا شك أن الوقت قد حان للقيام بهذه الرسالة الجليلة، والله مع العاملين.

* * *

الفصل الأول

نشأة الشعر العربي في غربي أفريقيا

من مقتضيات الحديث عن نشأة الشعر العربى فى غربى أفريقيا الحديث عن حركة اللغة العربية، ومدى انتشارها فى ربوع المنطقة قبل الاستعمار. فقد امتدت الثقافة العربية الإسلامية فى المغرب إلى السودان الغربى.

وكانت لهذه الثقافة منافذ أطلت منها على ربوع المنطقة، منها التجار، وقد تحدث المؤرخون عن طرق القوافل التجارية التى كانت تصل السودان الغربى ومصر من جهة، والتى تربط بينها وبين شمالى أفريقيا «تونس» من جهة أخرى، ثم التى تربط بينها وبين المغرب الأقصى من جهة ثالثة [1]. كانت هذه العلاقة تجارية فى بدايتها، وبظهور الإسلام ودخوله فى السودان الغربى أصبحت علاقة دينية ثقافية فى الدرجة الأولى.

وجاءت هذه العلاقة الدينية لتجعل هذه الشعوب أمة واحدة تلتمس نظم حياتها وقيمها الأخلاقية من مصدر واحد هو الإسلام بجوانبه الشاملة للحياة.

وكان من الطبيعى إذن أن يهرع أهل السودان الغربى إلى تعلم هذا الدين الذى وجدوا فيه صلاح أمورهم، وأن ينشطوا إلى تعلم لغته ليتمكنوا من أداء شعائرهم على أتم وجه.

وبتعلم اللغة العربية أصبح مسلمو السودان الغربى يمثلون الطبقة المفكرة الراقية في تلك المنطقة حتى أن خبراء الإدارة والتخطيط فى الممالك الوثنية لم يجدوا بداً من الاستعانة بالمسلمين فى أمور الدولة.

---

(١) لمزيد من التفصيل انظر الآتى:

الثقافة العربية فى نيجيريا ص ٢، د. على أبو بكر، طبعة مؤسسة عبد الحفيظ البساط، بيروت. حركة اللغة العربية وآدابها فى نيجيريا ص ٢، د. أحمد شيخو غلادنشى، رسالة دكتوراه.

وقد احتل المسلمون مناصب الترجمة والإدارة فى إمبراطورية «غانة» الوثنية قبل أن تصبح إمبراطورية مسلمة [١].

واستمر الحال على هذا الوضع حتى بعد إسلام الإمبراطورية وسقوطها وقيام دولة «مالى» المسلمة على أنقاضها .. وقد وصف ابن بطوطة هذه الإمبراطورية الإسلامية ومدى حرص أهلها حكومة وشعبًا على تعليم أولادهم الدين واللغة العربية وتحفيظهم القرآن الكريم [٢].

وقد أشاد المؤرخون بالزيارة التى قام بها «أسكيا محمد» إلى القاهرة فى طريقه للحج وكان من نتائج النصائح والإرشادات التى أسداها إليه رجال الدين البارزون فى القاهرة، مثل جلال الدين السيوطى وغيره أثر كبير على تطوير التعليم فى المنطقة ... فقد تطور التعليم فى جامع «سنكورى» وأصبح قبلة للطلبة فى السودان الغربى ، وكانت العلوم التى تدرس فيها هى :

الفقه المالكى واللغة والنحو والصرف والبلاغة والمنطق والتاريخ والجغرافيا والفلك والحساب، وليس من قبيل المبالغة أو الشطط القول بأن المراكز الإسلامية فى السودان الغربى أصبحت صورة مصغرة للثقافة الإسلامية فى مصر والمغرب بفضل هذه الزيارة المثمرة التى قام بها «أسكيا محمد» إلى القاهرة [٣].

وكان على رأس حركة «أسكيا محمد» الإسلامية النشطة العالم الجليل «الإمام المغيلى» الذى كان له دور بارز فى نشر الإسلام وتدعيم مفاهيمه والدعوة إليها وتوجيه الحكام للعمل بها فى طبع المجتمع بطابع إسلامى [٤].

أما مراكز الإشعاع الثقافى الإسلامى فى السودان الغربى فتتمثل فى التالى :

---

(١) انظر: المغرب فى ذكر بلاد أفريقيا والمغرب، ص ١٧٩ ، البكرى دار دى سلان، الجزائر.

(٢) انظر رحلة ابن بطوطة ، دار صادر ودار بيروت.

(٣) الثقافة العربية فى نيجيريا ص ٤٦ .

(٤) الدعوة الإسلامية فى غربى أفريقيا وقيام دولة الفلانى .

(أ) تمبكتو:

وهى مدينة إسلامية منذ نشأتها «وما دنستها عبادة الأوثان ولا سجد على أديمها لغير الرحمن»[1].

وكانت فى بداية أمرها مركزاً يقصدها الطوارق للانتجاع بمواشيهم فى فصل الجفاف. وقد حفروا فيها بئراً ثم توالت الآبار فيما بعد وأصبحت ملتقى للتجار يقيمون حولها للاستراحة.

وبمرور الزمن أصبحت سوقًا للتبادل التجارى بين تجار الشمال والجنوب، فبنيت فيها المساجد وقصدها كثير من العلماء وتحلق حولها العديد من طلاب العلم فأصبحت «تمبكتو» مركزاً ثقافيًا إلى جانب كونها مركزاً تجاريًا هامًا[2]، وكان لسان سكانها فيها لغة صنغاى.

أما العربية فكانت لغة الثقافة والإدارة معًا، كما تحدث بها الناس كلغة شائع استعمالها[3].

واشتهرت «تمبكتو» بحركتها الثقافية على النمط الإسلامى فى السودان الغربى كله طيلة أيام «مالى» و«صنغاى».

وقد خلفت لنا كثيراً من العلماء النجباء النحارير، وكان من أشهرهم أحمد بابا التمبكتى صاحب كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج .. والسعدى، صاحب «تاريخ السودان»، والقاضى «ألفع محمود كعت» صاحب «تاريخ الفتاش».

(ب) جنى:

وهى تأتى فى الدرجة الثانية بعد «تمبكتو» وكان بها كثير من العلماء وطلاب العلم، ولذا كانت أهميتها تجبر «الأساكى» على احترامها، فكلما مر

---

(١) تاريخ السودان ص ٢١٨ .
(٢) مملكة سنغاى فى عهد الاسقين ص ١٠٠ .
(٣) ليون الأفريقى ص ١٠٩ .

جيشهم بها فإنهم يلاقون قاضيها ويقدمون له الهدايا أو يساعدونه على بناء مأوى لطلاب العلم أو بناء مسجد من المساجد .. ونعرف من علمائها الشهيرين أيام «الأساكى» «مورى جانا» الذى كان يباشر التعليم بمساجدها فى القرن التاسع الهجرى/الخامس عشر الميلادى، ثم القاضى «سانو» وكذلك «العباس كبى» و«محمد بارهايورو» (١).

ومن هذه المراكز أيضاً «غاو» و«ولاته» و«كانوا» و«كاتسنا».

تلك هى مراكز الإشعاع الثقافى الإسلامى الكبرى فى السودان الغربى فى تلك الفترة المبكرة من تاريخ المنطقة الإسلامى، وإلى جانبها مصادر أخرى للإشعاع منها:

المساجد، والمدارس، والعرائش المبنية فى ربوع المنطقة، والمدارس الأخرى التى تأخذ مكانها تحت الأشجار، ودهاليز العلماء وغيرها كالأفنية التى تتخذ للكتاتيب والخلوات والزوايا.

وهكذا أخذ التعليم العربى الإسلامى يخطو خطوات حثيثة نحو التقدم والازدهار إلى أن وصل إلى أوج قمته وازدهاره فى مملكة «صنغاى» أيام «الأساكى».

ولعل أكبر دليل على ما وصلت إليه اللغة العربية من النضج والازدهار فى ذلك الوقت الأسئلة السبعة التى كان قد بعث بها الحاج «أسكيا محمد» الأول إلى الإمام المغيلى حوالى سنة ٩٢٣ هـ/١٥٠٢م، فكل سؤال منها يحتوى على أكثر من سطرين، أما عباراتها فشديدة القوة والتماسك، ولا شك أن كاتبها من نوع الكتاب البارعين (٢).

وقد أثنى الباحثون على أسلوب أحد كتاب هذه الفترة وهو «أحمد بابا

---

(١) مملكة سنغاى ص ١٠٨.

(٢) دولة سنغاى فى عهد الأسقين ص ١٥٦.

التمبكى » ووصفه بأنه أسلوب امتاز بالجزالة والموضوعية العلمية والتمكن من المفردات، وكتابة الجمل متناسقة وقصيرة [1] شأن المتمكن من اللغة.

أما المتانة فنلمسها فى أن الرجل ألفاظه على قدر معانيه، أما عباراته فهى شديدة الدلالة على ما يقصد.

نعم إن القبائل التى دخلت الإسلام قد اتخذت اللغة العربية لغة حياة كاملة، ومن ثم فإنها تذوقت قسماً هاماً من الثقافة العربية وأنتجت فيه.

أما نتاجها الفكرى فقد اصطبغ بالصبغة الإسلامية، وطبيعى أن يكون الأمر كذلك، فالذين كانوا ينتجون فى هذا الميدان إنما كانت تمثلهم النخبة التى تمكنت من الدين الإسلامى بواسطة اللغة العربية.

واصطبغت حركة الفكر بصبغة جديدة هى التى كان يمثلها الانسجام الكلى مع الإسلام، فنحن نجد فى المدن الكبيرة التى كانت ترتكز حولها ميادين النشاط الإنتاجى والتعامل التجارى مثل « تمبكتو » و« ولاته » و« كانوا » و« كاتسنا » .. وغيرها علماء ومفكرين وقضاة، قد تمكنوا من دراسة اللغة العربية والفكر الإسلامى، حتى أصبحوا ينتجون فى ميادينها مختلف مؤلفاتهم بالشروح والكتابات التاريخية والفقهية واللغوية على النمط الذى كان عند العرب فى المشرق والمغرب على السواء [2].

وهكذا ازدهرت اللغة العربية وتمكن منها السودانيون وأنتجوا فيها طرائف رائعة إلى أن بدأ الجيش المغربى الغازى فى اقتلاع جذورها، فبدأت تذبل شيئاً فشيئاً حتى وصف بعض المؤرخين نتاج تلك الفترة الراكدة بأنه يتسم بالركاكة لبعده عن المتانة والجزالة، ولكثرة الحشو واستعمال تعابير غير فصيحة [3].

ومهما يكن من أمر فإن الكتابات التى وصلت إلينا من ذلك الوقت هى كتابات قليلة وكلها باللغة العربية، ومن الاطلاع على مجموعها يستطيع الدارس

---

(١) المرجع السابق ص ١٥٦ مع تصرف.

(٢) دولة سنغاى ص ١٥٦.

(٣) المرجع السابق ص ١٥٧.

أن ينتهى إلى القول بأن الكتابة العربية قد بلغت مستوى مقبولاً لدى كتاب تلك الفترة من السودانيين.

وبعد فترة الركود هذه، انتعشت الثقافة العربية الإسلامية مرة أخرى فى دولة «الشيخ عثمان بن فودى» المصلح المجدد، وذلك فى كتاباته وكتابات أخيه الوزير عبد الله بن فودى وابنه «محمد بلو» وغيرهم من كتاب تلك الفترة .. أضف إلى ذلك أن الشيخ المجدد قد وضع لدولته نظامًا إداريًا دقيقًا خاضعًا للنظم الإسلامية وجعل اللغة العربية اللغة الرسمية والثقافية فيها، وتشهد الرسائل التى تبودلت بين الشيخ المجدد والشيخ «الكانمى» على ما وصلت إليه اللغة العربية من ازدهار وتطور فى تلك الفترة.

على أنه يجدر بنا الإشارة هنا إلى الكتب التى أثرت فى الثقافة العربية الإسلامية لهذه المنطقة لنتمكن من الحكم على الشعراء الذين سندرسهم فى الفصول القادمة على ضوء الظروف والإمكانات الإبداعية المتاحة لهم..

ومن المستحسن أن نسرد هذه الكتب حسب فنونها وهى كالتالى:

الفقه وأصوله:

١ – المدونة الكبرى.
٢ – مختصر الخليل.
٣ – المنتقى للباجى.
٤ – تحفة الأحكام لابن عاصم.
٥ – جامع معيار الونشريسى.
٦ – جمع الجوامع للسبكى.
٧ – التوضيح.
٨ – رسالة ابن أبى زيد القيروانى
٩ – الاخضرية.
١٠ – العشماوية.
١١ – العزية.
١٢ – منظومة القرطبى.
١٣ – ابن رشد.
١٤ – ابن عاشر.
١٥ – الورقات لإمام الحرمين.
١٦ – أصول السبكى.
١٧ – القرافى.
١٨ – الكوكب الساطع.

١٩ – فرعا بن الحاجب .

الحديث وعلومه :

١ – كتب الصحاح الستة .
٢ – الموطأ للإمام مالك .
٣ – ألفية العراقى .

السيرة النبوية :

١ – ألفية العراقى فى الشمائل النبوية .
٢ – الشفا للقاضى عياض .
٣ – سيرة ابن هشام .

القراءات :

١ – منظومة ابن البرى .
٢ – القصيدة الشاطبية .

التوحيد :

١ – السنوسية وشرحها .

التنجيم :

١ – الهاشمية فى التنجيم .

المنطق :

١ – رجز المغيلى .
٢ – مقدمة التاجورى .

النحو :

١ – الآجرومية .
٢ – ملحة الأعراب للحريرى .
٣ – قطر الندى لابن هشام .
٤ – شذور الذهب .
٥ – بلوغ الأرب .
٦ – خلاصة ابن مالك .
٧ – البهجة المرضية للسيوطى .
٨ – المنهج السالك للأشمونى .
٩ – شرح قطر الندى للماردينى .
١٠ – الفريدة للسيوطى .
١١ – التحفة الوردية وشرحها .
١٢ – مختصر ابن الحاجب .

١٣ – تسهيل ابن مالك.

١٤ – فرعا ابن الحاجب.

اللغة والأدب:

١ – العشرينات.

٢ – الوتريات.

٣ – الشعراء الستة.

٤ – مقصورة ابن دريد.

٥ – المقامات للحريرى.

٦ – الحكم العطائية.

العروض والقوافى:

١ – الرامزة.

٢ – الدرر اللوامع.

٣ – الخزرجية.

البلاغـــة:

١ – تلخيص المعانى.

٢ – ألفية المعانى.

٣ – الجوهر المكنون.

٤ – شرح النقاية للسيوطى.

٥ – تلخيص المفتاح

٦ – مختصر السعدى.

٧ – صغرى السنوسى.

٨ – نظم ابن مقرعة.

٩ – شرح الجزائرية [1].

تلك هى الكتب المتداولة فى هذه المنطقة ... وجدير بالذكر الإشارة إلى أن كتاب الشعراء الستة الجاهليين من أقدم النصوص التى كانت متداولة فى هذه المنطقة.. وعليه، وعلى الاستشهادات الشعرية المبثوثة فى كتب البلاغة والنحو والتاريخ وغيرها اعتمدوا فى تكوين ملكاتهم الفنية بعامة والشعرية بخاصة.

فى هذه التربة الثقافية، نشأ الشعر العربى فى غربى أفريقيا.

ولكن متى حدث ذلك؟

---

(١) إبداع النسوخ ص ٦٠٣.

ليس من السهل على الباحث أن يهتدى إلى تاريخ صحيح لنشأة الشعر العربى فى هذه البلاد أو أوليته.

ذلك أن الشعر السابق للقرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى يحيط به شئ من الغموض والضبابية مما يصعب معه الاهتداء إلى أشعار تلك الحقبة .. على أن هناك حقائق تاريخية تشير إلى وجود شعر عربى اللسان فى المنطقة فى تلك الفترة التاريخية.

فالمؤرخ الأفريقى السعدى يشير في كتابه إلى نبوغ شعراء سودانيين والأغراض التى تناولوها [1]، غير أنه لا يسعفنا بذكر نماذج من تلك الأشعار.

ولعل آثار تلك العهود وأشعارها قد انطوت عليها حجب الزمان وأسدلت عليها أستار النسيان، فلم يصل إلينا منها شئ، ولم نهتد فيها إلا على خبر.

ونخلص من ذلك كله إلى أن الشعر العربى بغربى أفريقيا قد تهذبت حواشيه فى زمن لا نعرفه ولا يمكن أن نهتدى إليه.

ومن هنا فإن الجزم بأولية الشعر أو تحديد الزمن الذى هذبت فيه حواشيه وأطيلت قصائده يصبح ضرباً من المستحيل.

ولعل أقدم النصوص الشعرية التى وصلتنا حتى الآن لشعراء غربى أفريقيا السودانيين هى ما عثر عليه لبعض الفقهاء السودانيين أمثال «أحمد بابا التمبكتى» والطالب بن محمد بن الطالب عمر الخطاط بن محمد نضّ، والشيخ يحيى التادلسى، وعبد الله بن محمد القاضى والفقيه أميننا مينخن بن الفقيه مالك.

وهى نماذج يؤرخ لأقدمها بالقرن العاشر أو الحادى عشر الهجرى.

فمثلاً نجد لأحمد بابا التمبكتى مقطوعة فى الحنين إلى بلده، عندما كان فى منفاه «بمراكش»، يقول فيها:

---

(١) تاريخ السودان ص ٢١٨.

أيا قاصداً « كاغُوا » فعج نحو بلدتى	وزمزم لهم باسمى وبلغ أحبتى
سلامًا عطيراً من غريب وشائق	إلى وطن الأحباب رهطى وجيرتى
وعندى أقارب هناك أعزة	علىَّ السادة الألى دفنت بغربيتى
أبى زيدهم شيخ الفضائل والهدى	وصنو أبى عمى وأقرب أسرتى
وسيفى فسيف البين سل لفقدهم	علىَّ وهد الموت ركنى وعمدتى
ولا تنس عبد الله ذا المجدِ والندَى	فقد مد حزنى فقد قوتى وعشرتى
وشبانُ بيتى سارعوا عن أخيرهم	إلى ملك الأملاك فى وقت غربتى
فوا أسفا منهم وحزنى عليهم	فيا رب فارحمهم بواسع رحمتى[1]

ويبدو فى هذا الشعر لين وضعف فى النظم مما لا يخفى على أحد درس أبسط القواعد العروضية، فالبيت الثالث من المقطوعة منكسر وكذا الشطر الثانى من البيت الخامس، والأبيات من الطويل.

وللطالب بن محمد بن الطالب بن نضّ المتوفى ١١٦٥ هـ مقطوعة فى زجر النفس، يقول فيها :

مالى على اللهو واللذات واللعب	عكفت ويحى فما يكون منقلبى
ولى الشباب وأقبل المشيب ولم	أفق ولست بذى علم ولا أدب
قد ينقضى اليوم ثم اليوم يتبعه	شهر وعام بل أعوام ولم أتب
مرخى العنان بروضة الهوى ولقد	سودت فى نيلها وقراً من الكتب
أظل خلف الأمانى والهوى حكمى	وللمحال من الأيام فى الطلب[2]

والأبيات من البسيط غير أنها تتسم برداءة النظم، فالشطر الثانى من البيت الأول مكسور والبيت الثانى كله كذلك، وكذا الشطر الأول من البيت الرابع.

---

(١) بداية الحكم المغربى فى السودان الغربى ص ٥٤٤؛ ومملكة سنغاى ص ١٥٨.
(٢) فتح الشكور فى معرفة أعيان علماء التكرور ص ١٢٩ ، دار الغرب الإسلامى بيروت.

وواضح أن هذه الأبيات تمثل المرحلة البدائية فى النظم، وتلمح إلى غيره من الشعر المفقود.

أما الشيخ «التادلسى» فله رثاء جميل فى أحد العلماء المدرسين فى زمانه وهو محمد سميدع يقول فيه:

أطلاب علم الفقه تدرون ما الذى ... يثير هموم القلب من كل وافد
يثير همومَ القلبِ فقد سميدعٍ ... فقيهٍ حليمٍ للفرائد
محسن تعليمٍ مقربِ فهمه ... وفتاق تهذيب بحسن القواعد
محمدٍ الأستاذ مؤدب ذى النهى ... رباطًا صبارًا أمره فى التزايد
فيا عجبًا هل بعده من مبين ... ويا عربًا هل بعده من مجالد(١)

والأبيات السابقة سليمة من حيث نظمها وجيدة من حيث معانيها .. وقد ذكر صاحب كتاب فتح الشكور مساجلة شعرية بين الفقيه «أميننا مينخن» وبين عبد الله بن محمد القاضى العلوى، يمازحه الأخير فى برذونة له قائلاً:

لسيدنا مينخن، برذونة إذا ... خطت أخطات سير المراضى الأمالح
تباشر الأعراف منها ذؤابةً ... على نافع ابن التونسى بن صالح

فأجابه مينخن:

لئن كان عبد الله قد عاب عرفها ... وأخطاها سير المراضى الأمالح
فقد زانها تبليغها واصطلاؤها ... إذا ارتكبت يومًا أمام الملالح
عليها فتى لا ينثنى لكريهة ... وليس بذى سيفٍ وليس برامح(٢)

وقد تمت هذه المساجلة فى حدود سنة الأربعين بعد المائة والألف من الهجرة.

---

(١) تاريخ السودان ص ٤٩.

(٢) فتح الشكور ص ٦٣.

والنماذج السابقة لا تعدو أن تكون محاولات من فقهاء وعلماء كبار لم يبرعوا فى قصائدهم براعتهم فى علومهم، إذ يغلب على أشعارهم شئ من الضعف والركة، وتخلوا من الخيال والتصوير، وتتجاوز فى كثير من الأحيان أبسط قواعد العروض وعمود القصيد . . على أنها تمثل المرحلة التى تسبق الأشعار التى سنتناولها بالدراسة وهى المرحلة التى يؤرخ لها بما بين القرن الثالث عشر الهجرى إلى القرن الخامس عشر .

* * *

الفصل الثانى
فنون الشعر العربى فى غربى أفريقيا

يمكن القول إن فنون الشعر العربى فى غربى أفريقيا تدخل تحت مفهوم جنسين من أجناس الشعر، وهما الشعر الغنائى والشعر التعليمى.

أما الجنس الأول وهو الشعر الغنائى فقد أكثر القوم فيه إكثاراً شديداً، فمن مديح إلى رثاء إلى فخر إلى وصف إلى غزل إلى حماسة إلى شكوى إلى حنين إلى مدائح نبوية..

المـــدح:

طرق شعراء العربية فى غربى أفريقيا فن المديح ضمن أغراضهم الشعرية، وكان عندهم على مذهب زهير بن أبى سلمى الذى قال فيه عمر بن الخطاب رضى الله عنه: «كان لا يعاظل بين الكلام .. ولا يمدح الرجل إلا بما فيه» [1].. أى أنهم مدحوا لأن ممدوحيهم يستحقون المدح ولم يمدحوا ليملأوا جرابهم بالذهب والفضة – صنيع شعراء المديح التكسبى – وإنما كان ذلك صدى لوجدان الإنسان فى أعماقهم..

ومجمل القول إن المديح عندهم حب للمثالية المجردة وتعشق للقيم الطاهرة.

وكان أغلب الممدوحين من العلماء وقادة الفكر ورجال الدعوة الذين كانت لهم أياد بيضاء على الحياة الدينية والثقافية والاجتماعية والسياسية فى المجتمعات الإسلامية بربوع المنطقة .. أضف إلى ذلك أن الشعراء المادحين أنفسهم كانوا من نفس طبقات الممدوحين، ومن هنا قل المديح التكسبى فى شعرهم، إذ

---

(١) طبقات فحول الشعراء ص ٥٢، لمحمد بن سلام الجمحى، تحقيق محمود محمد شاكر ط دار المعارف.

أن الشعراء المحليين الذين يشعرون باللجهات القومية قد كفوهم مئونة التكسب بالمدح.

هذا ولم تختلف القيم والمثل العليا التى مدح بها شعراء العربية بهذه البلاد عن المثل والقيم التى مدح بها شعراء العربية فى المشرق والمغرب، كالعدل والوفاء والشجاعة والجود والكرم والإباء وحماية الجار وما إلى ذلك من القيم التى كان يتغنى بها الشعراء العرب فى ممدوحيهم ..

أما منهج القصيدة فقد ساروا على نهج القصيدة العربية من حيث البدء بالنسيب والوقوف على الأطلال ووصف الرحلة أو ما شاكل ذلك من الأمور التى أكد عليها النقاد القدامى كابن قتيبة الدينورى وابن رشيق القيروانى فى كتابيهما[1].

وها هو ذا الشيخ أحمد عيان سه يمدح الحاج سعيد النور تال سبط المجاهد المشهور الشيخ عمر الفوتى فيقول:

أمن تذكر من فى البان والبان ... أم من تذكر غزلان بغزلانِ

تاتى إلى طللٍ تبكى لساكنه ... وحى عنى تحايا الخيرِ أوطانى

أرقت ليلى وليلى لا يزال إذا ... غنَّى الحمامُ على غصنٍ فاشجانى

دع عنك سلمى وسلمى لا تجود لنا ... بالوصل إلا بطيف عند وسْنان

ما هبَّ فى «سانلوى»[2] المحروس ريح صبا ... إلا على الخدِّ أبكانى فابكانى

يلوح قومى ومثلى لا ينوح على ... تلك التصاوير إلا بعد أزمان

قلبى أسيرٌ بربع الراحلين فلم ... يجد سوى الجاث أو آثار حدثان

يا حسرتى من خطوبٍ لا تزال على ... دهرى وتسهرنى بالدمع عينان

---

(١) الشعر والشعراء ص ٢٧، ابن قتيبة الدينورى، طبعة دار الكتب العلمية. والعمدة، ج١، ص ٢٢٥، ابن رشيق القيروانى، ط دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء.

(٢) مدينة.

لا والذى قد أنار الكون طلعتُه فرد الجلالة سيف الله الهانى

وبعد هذه المقدمة يبدأ الشاعر فى مدح ممدوحه بالعلم والتنوير والإرشاد والجهاد فى سبيل الله وكثرة التأليف وأنه النبراس الذى أنار الله به «السنغال» ثم يصفه بأنه سيد صنديد يلوذ به الخائف والمحتاج فهو بذل جواد كريم وهو علامة الدهر فى علمه؛ فيقول:

أعنى الإمام سِعيد النور من كشفتْ به الجهالة عن أهلى وأوطانى
له تآليفُ غرٌّ ليس يشبهها شئ ويزدان منها كل مزدان
نور أنار به الرحمن جملتنا فى سنغال بتعليم وإتقان
لله ما كتبته لى أنامله تفوق عن عقد ياقوتٍ ومرجان
قد غاب مذ غاب عنا العلم أجمعه وليس يرجع إلا عند إتيان
.. هو الملاذ هو الصنديد سيدنا علامة الدهر فى بذلٍ وإحسان

وواضح أن الصفات التى خلعها الشاعر على الممدوح قديمة سبق إليها القدماء، ورغم ذلك فإنه كان مجيداً فى ديباجته صادقًا فى تجربته يدل على ذلك هذا الانسياب والتدفق فى أبيات القصيدة.

ونتجاوز هذا الشاعر السنغالى إلى الشاعر النيجيرى محمد البخارى ابن الشيخ عثمان بن فودى فى مدحه الشيخ محمد الجيلانى الأمير القائد، فنجده يبدأ قصيدته بالنسيب فيقول:

فجعتك أم الفضل بالهجران فبقيت بين الناس كالسكران
وكأنّ فى قلبى وجوفى جمرة مذ بعدتنى من جناها الدانى
قامت تراءى فى القصور بفاحمٍ رجل ومقلة شادنٍ ظمآن
وبجيدِ مغزلةٍ وساقِ خدلةٍ وترائبٍ كالدر والمرجان

وبعد هذا التشبيب الذى وصف فيه الشاعر محبوبته بصفات حسية استهلكت من قبل الشعراء القدامى، يبدأ فى غرضه الأساسى وهو المدح فيمدح

الممدوح بالشجاعة وشدة البأس فى الهيجاء وحلاوة الشمائل ولين الجانب للصديق ومرارة المذاق للعدو، فالجود وكثرة الكرم والإحسان والعدل وأنه امتلك البلاد بحد سيفه البتار وخصاله الحميدة.

وتلك صفات فى المدح مطروقة، إذ كانت من قبل القيم الاجتماعية التى كان الشعراء القدامى يحرصون على خلعها على ممدوحيهم لأنها تثير أريحيتهم، وجاء الإسلام فأقرها وحض الناس على التحلى بها على ضوء تعليماته .. ولنستمع الآن إلى ألحان الشاعر:

دع ذا وعد القول فى رغم العدى	حامى الذمار مجدل الشجعان
حلو الشمائل لين لخليله	مر مذاقته لذى الأضغان
بطل أخى ثقة يجود بنفسه	يوم الهياج وملتقى الأقران
ما فى القبائل كلها فى الجود والـ	ـهيجاء مثل محمد الجيلانى
ملك القبائل والأمور بسيفه	وسخائه والعدل والإحسان
وإذا نزلت به غريبًا عافيًا	أصبحتَ ربَّ حرافدٍ وحصان(١)

وهناك شاعر نيجيرى آخر هو الوزير الجنيد، قد سار على نهج القصيدة العربية فى مدحه للأمير حسن بن المعاذ ناظراً إلى بائية النابغة الذبيانى فى عمرو ابن الأصغر، فبدأ الشاعر بشكوى طول الليل ومرارة التسهيد وبعد المقدمة التقليدية أحسن التخلص إلى غرضه حيث يقول:

على أن بدا وجه الصباح كأنه	محيا أميرٍ ذى الأيادى الهوامع
أمير له فى كل فعلٍ محامدٌ	وأخلاقه فاقت عسولا لراضع
سخيٍ يحاكيه السحاب وخيره	عميمٌ لجمع الناس دانٍ وشاسع

فهو فى هذه الأبيات يصف الممدوح بالجود والكرم ودماثة الأخلاق وأن

---

(١) الحرافد: كرام الإبل.

السحاب تحاكيه فى العطاء والغزارة، وهو فى هذا الجود وذاك الكرم لا يميز بين العافين .. وهذه المعانى كلها قديمة قدم الشعر العربى أما الشمولية التى يتصف بها سخاء الممدوح فصفة قديمة سبق الشاعر إليها النابغة فى قوله:

فتلك تبلغنى النعمان إن له فضلاً على الناسِ فى الأدنى وفى البعدِ(١)

كما وصف ممدوحه بالحياء والحلم والعطف وحفظ الأسرار مع عدم الخيانة وتلك قيم عليا حرص عليها الإسلام كل الحرص لأنها من صميم مقاصده السامية فالحياء شعبة من شعب الإيمان والحلم سيد الأخلاق والعطف ديدن المسلمين فى التعامل فيما بينهم والوفاء والأمانة من الصفات الثلاث التى تميز المسلم من المنافق.. وشاعرنا قد خلع كل هذه الصفات الإسلامية على ممدوحه مضيفًا إليها العدل والحزم اللذين بهما استطاع الممدوح أن يشيع الأمن والطمأنينة فى البلاد حتى إن الشياه قد أمنت على نفسها من فتك الذئاب، ولنستمع إلى قيثارته فى ذلك..

أيا حسنُ السامى الحسينُ فعاله ويا سيدى السجير يا خير طائع(٢)

لقد فرحت هذى البلاد جميعها بأخذكها يا خير راعٍ ودافعِ

وزادت حلاها واطمأنَّتْ كأنها عروسٌ إلى كفءٍ تزف وشافع

وأمنتها من كل ظلم يشينها بعدلكَ حتى فرَّ ذئب البلاقع

وفى الختام يدعو للممدوح بدعواتٍ صالحات ثم يختم القصيدة بالصلاة والسلام على خير البرية محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم ..

ورغم كون معانى شاعرنا مطروقة إلا أنها جاءت موافقة لما يستحسنه الممدوح ويرتاح له..

وها هو ذا ذو النون السنغالى يمدح الشيخ الخديم أحمد بمبه، فيبدأ قصيدته بالوقوف على الأطلال ويرسم لنا لوحة فنية للأطلال ليؤكد قدرته على

---

(١) ديوان النابغة الذبيانى ص ١٢.

(٢) السجير: الصديق وجمعه سجراء.

مجاراة الشعراء القدامى فى المدح ثم يعرض عنها بعد أن أجاد وصفها وصفًا استوفى فيه كثيراً من عناصرها القديمة من نحو ذكره لما بدل معالمها من رياح عواصف وأمطار غزيرة، وما حل بها بعد رحيل أهلها من قطعان البقر الوحشى والغزلان وأسراب النعام إلى غير ذلك .. ولنستمع إليه :

مغنى سعاد عفته هوج العثير [1] … وسقته واكفة الغمام الممطرِ

والعين ترفل فى مراقد حورها … ترنو الرياض بكل طرف أحور

وترى مهاها البيضَ ترعى روضةً … مطلولةً نمصت ببطن محسر [2]

أطفالُها يمرحن فى أطلالها … فكأنها فى الشعب شعب العرعر

أوعالها تستنُّ فى أوعارها … ترعى خزاماها وغضَّ الأزهر [3]

وترى قلائص فى تيائر آلها … فكأنهن سفائن فى أبحرِ [4]

غزلانها تقفو مدى ظلمانها … إن راعها صبحًا زئير غضنفر

فالشوقُ لو زارَ الخلىَّ أقله … نالتهُ منه كسرةٌ لم تجبرِ

وبعد هذه المقدمة التقليدية يبدأ فى مدح الشيخ فيقول :

أعرض فؤادى الهيض عن طللٍ عفا … لم يبق فيه سوى المها والجؤذر [5]

وذر الربوع ومن بها قد حلَّ من … غيدٍ عليها كل ثوب أخضر

مهما شدَا شادٍ أمَلْنَ قدودها … كغصون بانٍ غبَّ ريحٍ صرصر [6]

.. فالحمد منى يستهل غيومه … من يومنا هذا ليوم المحشر

أهل الهوى شرقَ البلاد وغربِها … إنى أناديكم بصوتٍ جهورى

(١) العثير: العجاج الساطع، وهوج العثير أى الرياح المتربة.

(٢) نمصت: أى رعتها الماشية فجردتها ثم نبتت.

(٣) أوعال: جمع وعل وهو تيس الجبل. تستن: اى تجئ دفعة دفعة. أوعار: جمع وعر.

(٤) تيائر: جمع تيار. وآلها: أى سرابها.

(٥) الهيض: اللين المنكسر الجؤذر: ولد البقر الوحشى.

(٦) غب ريح صرصر: أى عقب ريح صرصر.

كونوا معى فى مدح هذا المرتضى | شمس الفضائل ذى المقام الأكبر
وله مآثرُ كالجواهر حسنها | تنسى مآثر تبَّعٍ أو حمير
إن شئت ذكّره وأنث غيره | شتان بين مؤنثٍ ومذكر
تلقى الورى إن جئت ساحة داره | والقوم بين مهلل ومكبر
فالمادحون على جلالة قدرهم | لم يدركوا مضمار هذا الأشهرِ
طولت فى مدحى وهم قد قصروا | شتانَ بين مطَوِّلٍ ومقصِّرِ
.. فيمينه قد عممت فى الجود حتْـ | ـتى لم يميز يعمراً من جعفر
أما يتيمٌ عند هذا الشيخ لم | يقهر وسائل جوده لم يُنهر
محنى غدت منحًا إذا عاينته | أحبب به من عارفٍ متبحِّرِ
ما مثله كسرى علاً ومهابةً | بل دونَ مأواهُ جلالةُ قيصرِ(١)
فبناتِ نعشٍ دون شسع نعاله | بل دون رتبته السهى والمشترى
بل لم يج حبرٌ بأدنى فضله | إن راح يزبر رقه من محبرِ

فى الأبيات السابقة يمدح الشاعر هذا الزعيم الروحى فى السنغال بالكرم والفضل والتقوى وكثرة الذكر والتبحر فى العلم وعلو الكعب والمهابة اللذين دونهما علو ومهابة كسرى وجلال دونه جلالة قيصر، وهو يمنح معتفيه عطاءه ولا ينهر سائله واليتيم عنده غير مقهور .. وهذه الصفات التى خلعها الشاعر على الممدوح بعضها مطروقة مكرورة كالجود وعلو الشأن والمهابة والجلال، وبعضها الآخر مستقاة مما تشبع به مبادئ الإسلام السامية وقيمه النبيلة من أمثال التقوى وكثرة الأذكار والتبحر فى العلم وعدم نهر السائل وقهر اليتيم، فأبياته فى هذه المعانى تعبق بعبير الدين متأثراً بالآيتين الكريمتين من آيات «الضحى» كقوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ ﴾ [الضحى: ٩ – ١٠].

---

(١) كسرى: عظيم الفرس. وقيصر: عظيم الروم.

وفى ختام القصيدة يزهو بنفسه على طريقة المتنبى ثم يعود إلى المدح فيمدح ممدوحه بغزارة العلم ومعرفة أوابد اللغة العربية وشواردها وأنه يزاحم من مضوا من كبار العلماء والمفكرين المسلمين فى علومهم فيقول :

يا ناسجًا ثوب المديح وناظمًا فقر الثنا فانظم لقولى وانثرِ

وأنخ قلوصك فى فنائى واستفد منى وراقب سر قولى الأزهر

.. فتريك أقلامى بقاعًا روضها يفتر بين مدرهم ومدنَّرِ

نظمًا ونثراً يعجبان لمن غدا يتلوهما فى موردٍ أو مصدرِ

ما حاك مثل ثياب مدحى حائكٌ فى رقة المعنى وحسن المنظر

بل ما حكى حاكٍ بديعًا مثله بل لم يعنعن فى ممر الأعصر

وهكذا يستمر فى الزهو والخيلاء حتى يرضى نفسه ويشبعها زهواً ثم يعرج بعد ذلك على الممدوح مرة أخرى فيقول :

فلسان حال الشيخ أعلن أنه يهمى لهاه لعائلٍ ولموسر[1]

فالدهر يعلم أنه هو فرده وعلى حقائقه النهى لم تعثر

وفيوضه وهبية ولغاته ما جابها القاموس ثم الجوهرى[2]

وبمنكبٍ ضخمٍ يزاحم من مضوا وهم وفودٌ جمعهم لم يكسر

.. ويستمر الشاعر على هذه الوتيرة من المدح وذكر المآثر حتى يختم القصيدة بالصلاة والسلام على رسول الله ﷺ ..

ولنعرج الآن على واحدة شقيق ذى النون وهو الشيخ ابن العربى له فى مدحه الشيخ سعد أبيه حيث سار فيه على الطريقة التقليدية فى المدح من حيث البدء بالتشبيب فيقول :

---

(١) العائل الفقير.

(٢) يشير هنا إلى القاموس المحيط للفيروزابادى والصحاح للجوهرى.

بعـــد المزار دعـــا إلى التـــذكـــار وأفـــاض غـــربَىْ دمـــعىَ المدرار[١]

صـبًا أهاب به الشـجـون فـاغـتـدى شـبـحـا أرقَّ من الخـيـال السـارى

إن الأحــبــة صــيــرونى فى الهَــوَى كـــرة تـقـلبـــهـــا يد الأخـطار

والربع من بعــــد التـنائى يزدهى باليـــاسـمين الغض والعـرعـــار[٢]

قــد كـــان قـــبل البين مـــغنىً آهلاً بالثـــيـــبـــات البـــيض والأبكار

.. مغنىً عهدتُ بها حسانًا كالدمى نجل العـــيـــون حـــوالك الأشـــعـــار

كم عـــــابدٍ الهـــــاه عن أوراده صـــوت القـــيـــان وغنة الأوكـــار

..ولقد رأيت الشوق يكمن فى حشا صبٌ كـــمـــونَ النار فى الأحـــجـــار

.. حنَّ الفـؤاد إلى سـعـــاد وبيننا أفـــلاءُ ذات مـــعـــالمٍ وقـــفـــار

حلف الســـهـــاد كـــان فى أجـفـانه خـــرط القـــتـــاد وهزة المنشـــار[٣]

إن رمت أن أجنى مـجـانى خدّها قـــالت لواحظهـــا حـــذار حـــذار

وبعد هذه المقدمة الغزلية الرائعة يبدأ الشاعر فى غرضه الأساسى فيمدح الشيخ سعد أبيه بأنه غوث الورى سعد السعود ملتقى الأنوار جامع العرفان سدرة منتهى الأخيار ذكار لله بالتلاوة والأوراد والأذكار، وهى صفات يهيم بها المتصوفة فهى منتقاة من معجمهم اللفظى .. ثم يصفه بالجود والكرم والأخلاق الحميدة فيقول:

إن لـم أنل منهـــا الوصــــال لعلة دقَّت مـــداركـــهـــا عن الأبصـــار

أعـــرضت عنهـــا ثم عن جـاراتهـــا من كل ذات خــــلاخل وســــوار

الشيخ سعد أبيه جمع جوامع الـــ ـــعـرفـان سـدرة منتـهى الأخـيـار

حـــضـــراته مـــحـــفـــوفـــة بتـــلاوة الـــ ـــقــــــرآن والأوراد والأذكـــــــار

---

(١) الغرب: الرواية التى يحمل عليها الماء.

(٢) العرعار أو العرعر: شجر السرو.

(٣) خرط القتاد: قشر شجر له شوك كالإبر وفى المثل: دونه خرط القتاد.

سهلٌ خلائقه وتحت ثيابه   جود يحىٌ سوابك الأمطار

وعلى هذا المنوال جرى شاعرنا فى مطولته الرائعة.

ويلاحظ أن الشاعر قد اتكأ فى بعض الصفات التى خلعها على الممدوح على الشعر القديم كوصفه له بالجود والكرم ودماثة الأخلاق .. ثم أضاف إليه صفات أخرى تفوح بنكهة التصوف السلوكى، كتعميره مجلسه بتلاوة القرآن وأوراد الصوفية ووصفه له بأنه غوث الورى وسدرة منتهى الأخيار وملتقى الأنوار وصاحب الحقيقة والشريعة وشيخ الشيوخ إلى غير ذلك من صفات تثير أريحية الزاهد وتهتز لها نفسه ..

وبعد، فإن المديح عند شعراء العربية فى غربى أفريقيا كان منبعثًا عن فكرة الإعجاب وحب الفضائل والإشادة بالخصال والسجايا الحميدة، فهو إذن مديح مثالى مجرد عن أى غاية إلا غاية التغنى بالجمال المثالى الخلقى، فلم يكن، كما قلنا من قبل، لرفد الممدوح أو نيل عطاياه، كيف يكون ذلك والشعراء المادحون أنفسهم كانوا من نفس طبقات الممدوحين أى أنهم من طبقات العلماء والمفكرين ورجال السياسة .. ولذا كان المديح عندهم حبًا للمثالية المجردة وتعشقًا للقيم الطاهرة والتغنى بالأخلاق المحمودة..

وقد عبر هذا المديح عن مضامين وقيم يمكن أن نلخصها فى الآتى:

(أ) قيمة الكرم والجود.

(ب) قيمة القوة والشجاعة.

(جـ) قيمة العفة والعدل والمساواة.

(د) قيمة حسن الشيم والأخلاق والوفاء وشرف المحتد.

(هـ) قيمة العطف والسماحة.

وهذه القيم المذكورة هى نفس القيم التى تغنى بها الشعراء القدامى منذ العصر الجاهلى مما جعل الناس جميعًا يودون أن يمتدحوا بها .. غير أن شعراء

العربية بغربى أفريقيا قد أضافوا أو أكدوا على قيم ومضامين جديدة أضفت على مديحهم الطابع الدينى مما جعل صدى الدين ملازماً لشعرهم فى جميع أغراضه كما كانت الطبيعة ملازمة للشعر العربى الأندلسى فى جميع أغراضه .. ومن هذه القيم والمضامين الجديدة:

(أ) قيمة العلم والتعليم.

(ب) قيمة التقوى والزهد.

(جـ) قيمة تعمير المجالس بالذكر وتلاوة القرآن.

(د) قيمة الجهاد لنشر الدعوة الإسلامية والذود عن حمى الدين.

ونسجل هنا بعض الأمثلة على هذه القيم الجديدة ..

فعن قيمة العلم والتعليم وما يتبعهما يقول أحمد عيان سه:

أعنى الإمام سعيد النور من كشفتْ   به الجهالة عن قومى وأوطانى
له تواليف غرّ ليس يشبهها   شئُ ويزدان منها كل مزدان

وعن التدين ونشر الدعوة بالجهاد يقول محمد البخارى:

إنى لأخشى أن يحلَّ بداركم   من بغض هذا العالم الربانى

وعن التمدح بالتقوى والزهد والورع يقول أحمد عيان سه:

عناية الله فى الروحان قد سبقت   مقرونةً بالتقى فى السر والعلنِ
فاعجب لهمة شيخٍ وهى عاليةٌ   بالليل تمنعه من لذةِ الوسنِ
لم تلهه بهجة الدنيا وزينتها   ولا التفاخر بالأتباع والبدن

ومن الجدير بالملاحظة الإشارة بأنهم قد وظفوا ثقافاتهم الواسعة فى الغريب والمنطق وبعض العلوم الإسلامية فى أشعارهم وجمعوا فى ذلك بين سهولة النظم ووعورة الألفاظ.

الرثـــاء :

أما الرثاء فيعد من أكثر الأغراض الشعرية تناولاً عند شعراء العربية فى غربى

أفريقيا .. فما أن يتوفى عالم من العلماء أو قائد من قادة المسلمين حتى يهرع الشعراء إلى رثائه بقصائد حزينة بكاء على موت هذا الركن من أركان المجتمع الإسلامى فى المنطقة.

أما أنواع الرثاء التى تناولوها فهى رثاء العلماء والملوك والوزراء والآباء والإخوان والأصدقاء والأزواج ورثاء المدن .. غير أن أكثر الأنواع تناولاً لديهم هو رثاء العلماء والأصدقاء..

وتناولوا من حيث مضمون الرثاء كلا من الندب والتأبين والعزاء، ويعد الرثاء بحق من أصدق التجارب الشعرية لمساسه جانبًا مهمًا وخطيرًا من حياة هذا الإنسان الضعيف، وهو الموت الذى يعتبر نهايته من هذه البسيطة ليلحق بحياة أخرى أبدية هو فيها بين أمرين، إما سعادة أبدية وإما شقاء مقيم..

وها هو ذا الشاعر السنغالى أحمد عيان سه يرثى الشيخ زين الحامدين الشهير بحامد كن فيقول:

أيا مُدير كؤوس الشاى لا تدر	فقد سقيتُ بكأس جالب الكدرِ
لما نعى حامدا الناعى سهرتُ لهُ	ولومُ من لام لا يشفى من السهر
فليبك حامدَ منا كلُّ ذى رحمٍ	فإننى عن بكاه عزَّ مصطبرى
وليبكه العلم والتعليم مجتهداً	ولتبكه كتب التفسير والأثر
وليبكه النحو والفقه الصحيح كما	يبكى عليه بيانٌ جاء فى الزبر
يا أهل «فوت»[1] نعى الناعون سيدنا	فلتصبروا فعظيم الأجر للصبر
ليس البكاء بمجد فيه خردلة	والصبر أجمل للمقدور والقدر
لو كان يفدى فديناه بأنفسها	والموت لم تنج منه شدة الحذر
قد كان فى خدمة الأشياخ مجتهداً	بنفسه وبمالٍ غير مدخر
فاذهب عليك من الرحمن رحمته	مشيعًا بين جناتٍ على سرر

(١) منطقة .

إن كنت سافرت محمودا إلى أجل فنحن بعدك فى الدنيا على سفر
لبيك نحن على ما كنت تعهده من المودة يا مستحسن السير
يكفيك من ولدٍ ما كنت تعمله من صالح العمل الباقى على الأثر
سقى ضريحك غيثٌ باردٌ شبمٌ من رحمة الله يهمى مدة العصر

فالشاعر قد أظهر حزنه وتفجعه لما نعى إليه المرثى، هذا الشيخ المصلح الدينى، وبين أن مصابه جلل ولذا يعز عليه الاصطبار.

ثم ذكر صفات الميت الحسنة فهو عالم فقيه ناشر للعلم فى ربوع البلاد ولذا يطلب الراثي من كتب التفسير والحديث والفقه والبيان والنحو أن تبكى على فقيدها وهو هذا الشيخ الجليل، ثم يطلب من قوم المرثى أن يستعينوا بالصبر على مصابهم الفاجع ففى ذلك سلوان لهم وأجر عظيم، إذ أن البكاء لا يجدىَ فيه لأنه لا يعيده إلى الحياة، وأن الصبر والرضى بقضاء الله وقدره هو الأجدى والأنفع. ثم يعزى نفسه بأن الموت حق ولا يتخذ له تقية من حذر، ثم يعود إلى ذكر محاسن الميت فهو خادم للعلم ورجالاته بنفسه وماله، ثم يدعو له بأن يسكنه الله فسيح جناته يتبوأ منها حيث يشاء، لأنه فى الدنيا كان محمود السيرة ملتزمًا لنهج الشريعة إلى أن وافته المنية، وهم بعده سائرون على الدرب ولاحقون به إن شاء الله .. ويبدو أن المرثى لم يرزق بولد ولذا يطمئنه الشاعر بأن حسبه من ولد عمله الصالح الباقى الأثر، وكأنى به يشير إلى الحديث المشهور: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة، صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له»[1].

وأخيراً يدعو له بسقيا رحمة دائمة من الله على قبره..

وللوزير الجنيد ألحان حزينة يرثى بها شيخه أبا بكر الملقب بـ «بوبى» فيقول مظهراً التفجع والحسرة والأسى:

---

(١) رواه مسلم فى صحيحه.

أثار همـوم القلب بعـد هدوئهـا ... مصائبُ كادت أن تحلَّ عرى الصبر

نعم هد ركنُ الدين إذ عظم البـلا ... وضاقت صدور الخلق من شدة الذعر

وطارت عـقـول عن صـدور كـأنهـا ... طيـورٌ أطارتهـا الصـقـور عن الوكـر

وسـالت دمـوع عن عـيـون كـأنهـا ... على النحر ميزابٌ يصب على النهر

وذابت قلوب من لظى الهم والأسى ... كما ذاب من جمر اللظى قطعة التبر

وأظلمت الآفـاق واشـتـد خـوفنا ... وضاقت علينا الأرض فى البر والبحر

وعـز اصطبـار واسـتـمـرت وسـاوس ... وليس يفيد الصبر والقلب فى الجمر

ولا بد أن تعـشـوا العـيـون تحـيـراً ... لقد غربت شمس الفضائل بالسحر

وبعد هذا التفجع والجزن الشديد اللذين شارك الشاعر فيهما كل الوجود من حوله، يطلب الشاعر من عينه أن تجود بالدموع الهواطل نائحة على شيخ الشيوخ أبى بكر بحر العلوم وشمسها وخدن التقى والحلم والجود والخير وعنوان الوقار والمصباح الوهاج فى إنارة دجى الجهل بالوعظ والإرشاد، والكوكب الساطع فى العلم والتعليم، فلتنح العين عليه كما ناحت الورقاء تدعو هديلها وكما ناحت أم عمرو على عمرو ... وفى الختام يصف غدر الدنيا فهى دنيا غرور كثيرة المصائب لا يؤمن جانبها ومن أعظم بلائها ومصائبها فقد هذا السيد الكريم السخى، ثم يعلن رضاهم بقضاء الله وحكمه فهم عبيد مشيئاته فيقول:

أيا عين جـودى بالدمـوع هواطلاً ... ونوحى على شيخ الشيوخ أبى بكر

ونوحى على بحر العلوم وشمـسـهـا ... وخدن التقى والحلم والجود والخير

كـمـا ناحت الورقـاء تدعـو هديلها ... على أيكةٍ أو أم عـمـروٍ على عـمـر

مـصـائب دنيـانا الغـرور كـثـيـرة ... وأعظمـا فـقـد السـميـدع ذى البـر

رضـينا بحكـم الله فـينا لأنـنا ... عـبـيـد مـشـيـئـات نسـيـر مع القـدر

وقد وصف الشاعر المرثى بصفات منها الجود والحلم والوقار والكرم وهى صفات شائعة ذائعة فى الرثاء، غير أنه أضاف إليها صفات أخرى تعبق بنفحات

الدين من نحو وصفه له بأنه خدن التقى وبحر العلوم وأنه مرشد للناس إلى طريق الهداية وسبل السلام ومعلمهم دين الله، وأخيراً نجد أثر الإسلام على الشاعر فى غير هذه الصفات فى رضاه بقضاء الله وقدره والانقياد التام لمشيئته تبارك وتعالى، وكذا وصفه الدنيا بالغرور ناظراً إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

ولأسماء بنت الشيخ عثمان بن فودى مرثية فى صديقتها عائشة تقول فيها:

إلى الله أشكو من صنوف البلابل	ثوت فى سويداء لقلبى داخل
لفقد شيوخ قادة الدين سادة	وأخواننا أخدان خير ونائل
وذكرنى موت الحبيبة من مضى	من الأخوات الصالحات العقائل
من الصالحات القانتات لربهم	من الحافظات الغيب ذات النوافل
فزادت همومى وانفرادى ووحشتى	وسكب دموع فوق خدى هواطل
لفقدى لعائشة الكريمة يا لها	من امرأة حازت صنوف الفضائل
من الذكر والصدقات ثم تلاوة	وذب لمظلوم وحمل المثاقل
كفيلة أيتام غياث أرامل	وعمدة حى بالحبا والتواصل(١)
توحشت من فقدى لها وهى صفوتى	وموضع سرى من عصور أوائل

فالأوصاف التى خلعتها أسماء على عائشة هى الصلاح والتقوى والقنوت لله وحفظ زوجها فى الغيب وكثرة النوافل وأنها حازت الفضائل بكثرة الذكر والصدقة وتلاوة القرآن والدفاع عن المظلوم وحمل الأثقال وكفالة اليتيم وإغاثة الأرامل مع كثرة العطاء للمحاويج فى الحى .. وواضح فى هذه المرثية الاتجاه الدينى لدى الشاعرة ممثلاً فى الصفات الحميدة التى خلعتها على المرثاة، وإن كان

---

(١) الحبا: السحاب المتراكم القريب من الأرض والمقصود هنا العطاء الكثير.

بعض هذه الصفات قد تناولها الشعراء القدامى من قبل، كالكرم والدفاع عن المظلوم وحمل الأثقال ..

وهذا الاتجاه الدينى لدى الشاعرة ينجلى أكثر فى مرثية أخرى لها فى ذات الصديقة والتى تقول فى مطلعها:

أعيناى جودا وابكيا لى حبيبتى وسلوة أحزانى وأنسًا لوحشتى

وفيها تقول بعد أن ذرفت الدموع وأظهرت التفجع:

وإنى لحكم الله راض وإنما أراعى بما قد قلت حق الأخوة

ولا إثم حقًا فى الرثاء وقد رثى النبىَّ أبو سفيان يوم الوقيعة

فهى بعد الحزن تلجأ إلى الله راضية بقضائه فى صديقتها، وأن هذه الدموع وهذا البكاء فى الرثاء لا يأثم المرء به، فقد رثى أبو سفيان النبى عليه الصلاة والسلام يوم انتقل إلى الرفيق الأعلى صلوات الله وسلامه عليه .. ثم بينت ممنوع الندب على الميت بقولها:

وأبكى عليها بالدموع ترحمًا وشوقًا وتحنانًا لصدق المودة

ولم ينه عن هذا النبىُّ وإنما نهى عن صراخات بآهٍ وآهةِ

ولأخيها محمد البخارى مرثية فى زوجته يقول فيها:

يا أخت أحمد إن رزاك هاج لى دمعًا بدم

ونفى الرقاد فمذ نعيتِ إلىَّ طرفى لم ينمْ

نعم الفتاة حبيت مع حسن التبعل والكرم

خلقًا جميلاً ذا تمامٍ زانه حسن الشيم

غادرتنى متحيراً مستوحشًا بين الأمم

وهواكِ مالى حاجةٌ لسواك يا بنت الخضم

بل مذ فقدتك لا أرى النسوان إلا كالغنم

تالله تفتا مقلتى عبرى وقلبى ذا ألم

لكن رضيت بحكم جبار الخلائق ذى القدم
فسقاك رب العرش من رحماه غيثًا ذا شبم

فشاعرنا قد بلغ به الحزن مبلغه فأظهر الأسى والتفجع حيث ظل يقاسى مرارة التسهيد فهو دومًا يذرف الدموع قد حيره مصابه الأليم فى أعز الناس وأقربهم إليه، وهى زوجته التى يسكن إليها.

وإذا نظرنا إلى الصفات التى يرثى بها الشاعر زوجته نجد أنها هى:

حسن المعاشرة الزوجية والكرم والأخلاق الحميدة والشيم الكريمة مما جعله لا يجد وطرًا فى النساء بعدها فهو يتخيلهن كالأغنام وبالتالى لا يجد له بهن حاجة .. وأخيرًا يلجأ إلى الله الذى لا منجى ولا ملجأ إلا إليه بعد أن أظهر التفجع ولوعة الأسى ليسجل رضاه بحكم المحيى المميت الذى لا معقب لحكمه فهو جبار لا يسأل عما يفعل ... ثم يدعو لها بسقيا رحمة من الله رب العرش العظيم .. وهذا من قبيل الاتجاه الدينى الذى يلازم الشعر العربى فى هذه البلاد ولا ينفك عنه فى جميع أغراضه...

ويرثى الشيخ عمر إبراهيم أستاذه ماجى إسحاق فيقول:

عرانى من الهم ما قد كفانى — لموت الأديب فريد الزمان
إمام تفرد فى كل فن — فصار كشمس الضحى فى العيان
ففى الفقه فردٌ كذا فى الحديث — وفى النحو والصرف أو فى المعانى
إذا قيل من فاق للدرس شرحًا — أشارت أكفٌّ له ببنان
إذا العلم أشكل أبوابه — له عند حل العقود يدان

وهكذا استمر الشاعر يعدد أفضاله العلمية وتفوقه على الأقران إلى أن يقول:

ففى العلم بحرٌ وفى الجود بحرٌ — هناك إذن التقى البحران
لقد كان كالنيل فى مصرنا — وفاض فأكثر فى الفيضان

فــاحــيى القلوب التى يبــست   بماء تـقـطر فـى نـيـــســـان

إسحــاق علم إسحـاق فـضلٍ   إســحــاق جــودٍ فــداك جنانى

فالشاعر هنا يرثى أستاذه فيذكر تفوقه فى العلوم الإسلامية وبراعته فى الشرح والتدريس وحل المعضلات العلمية، فهو فى العلم بحر وفى الجود خضم وهو فريد نسجه وفلتة زمانه، وهو فى شهرته العلمية كالشمس فى رابعة النهار وهو يفيض من غزارة علمه كفيضان النيل، وهو يحيى بعلمه وإرشاده القلوب اليابسة والعقول المتحجرة القاسية التى لا تخاف ربها.

وللأستاذ إسماعيل بن محمد مرثية فى شيخه الحاج شعيب ابن الأمير محمد نسج فيها على منوال التهامى فى رائيته المشهورة التى يقول فى مطلعها:

حكم المنيــة فى البــرية جــارٍ   مـــا هــذه الدنيــا بــدار قـــرار

فيقول إسماعيل واصفًا حال الدنيا الغدارة:

الله أكـــــبـــــرُ ذى الـدنـا لـفـنـاء   خُلقَت ومـا خُلقت أخى لبــقــاء

دار كـثـيـر حـزنهـا وهـمـومـهـا   مـــا اضـــحـكت إلا أتت ببكـاء

كــانت على كـدر ونحن نرومـهـا   تبــقـى لنا بمـســرة وصــفـــاء

ترمى نبـال خـصـومـهـا لفـراقـه   يا صـاح فى نحـرى صبـاح مـسـاء

وبعد هذا الوصف للدنيا وتبدل أحوالها يبدأ الشاعر فى البكاء على شيخه فيقول:

واحــسـرتى واحـيـرتى من فـقـده   إنى أصــبـــحت بمن يداوى دائى

أبكى لموت أبى وشيـخى سيـدى   أكـــرم به من عـــالم مـــعطاء

تبكى العـيـون لفـقـده فـدمـوعـها   تهــمى كــمــاء ســحـابةٍ وطفـاء

..مـا زال يحــمل كلنا ويعــيننا   جــازاه خــالقــه بخــيــر جــزاء

بحــر العلوم نعم وبحــر الجـود من   فى بابه العلمـــا مع الفـــقـــراء

أكـرم به شـيـخـا وقـورا صـابرا   مـتـعـفـفـا مـتـزينا بسـخـاء
أعظم بمن يغـضى ويعـفـو دائبًـا   عن كل من يأتى بكل جـفـاء
طابت شـمـائله بخـشـيـة ربه   وتـزينت وتجـمـلت بحـيـاء
حـامى الذمـار خـصـاله مـحـمـودة   لمحـبـة العـلمـاء والشـرفـاء
مـا زال مـتـبـعـًا لسنة سـيـد الـ   ـكـونين عـالى هـمـة وذكـاء
مـتـخـشـعًـا مـتـواضـعًـا مـتـخلقًـا   بخـلائق النجـبـاء والصلحـاء
..حـاز العلوم أجـادها مـتـبـحـرًا   فـيـهـا بإتقـان وليس يـرائى
فـسـقى الإله ضـريحـه ديم الرضـا   وغـيـوث رحـمـتـه بلا إحـصـاء ..

فالشاعر فى هذه المرثية يرثى شيخه بصفات مستحسنة وأغلب هذه الصفات مصبوغة بصبغة دينية كعادة شعراء العربية فى هذه المنطقة..

والاتجاه الدينى فى هذه المرثية شديد الوضوح، فالشاعر يبدأ المرثية بذم الدنيا والزجر عن الاغترار بها وأنها خادعة متلونة وأنها فى النهاية فانية، مما يجعل العاقل غير متعلق بها..

ويظهر تأثير الدين أيضًا فى الصفات التى حلى بها الشاعر مرثاه فهو طيب السريرة جمع إلى حسن المنظر طيب المخبر، وهو يحمل الكل ويعين على نوائب الدهر وهو بحر فى العلوم والجود والكرم وقور صابر متعفف .. سمح يغضى ويعفو عن الجناة دمث الأخلاق حيى حامى الذمار جم الرماد، محيى سنة سيد الكونين والثقلين خاشع متواضع متخلق بأخلاق الصالحين وخصال النجباء حائز للعلوم متبحر فيها ومتقن لها، مجتنب للرياء فى أعماله الخيرية .. وهذه صفات وقيم تعبق بعبير الإسلام وأريجه ..

وأخيرًا يدعو للميت بسقيا من رضوان الله وغيوث من رحمته .. والدعاء بالسقيا على أضرحة الموتى تقليد قديم ولكن الشاعر صبغه بالصبغة الإسلامية حين ربطه برضا الله ورحمته.

ومن قبيل رثاء المدن والندب على أمجاد المسلمين فى هذه المنطقة السودانية قصيدة الشاعر أحمد عيان سه التى سماها بـ « دمعة الباكى » ذكر فيها الدول التى تنعمت بالإسلام وحضارته قديمًا راثيًا على ما آل إليه أمرها بعد دخول الأعداء المستعمرين فذكر هذه الدول وهى مالى وفوت وكجور وسيغ وجلف وكمب وبند وأنجور وغانا وطور وتمبكتو وجرما وهوصا وقاسن وكانو، كما ذكر مجد ملوك الزنوج مثل « لتجور » وأولياء مجاهدين مثل الحاج عمر تال فيقول [١]:

يا جامع الناس فى عزٍّ وفى شرفٍ	وموقظَ الناس من هون ومن تلف
فقف بسنغال والسودان مشتكيًا	ما دار بينهما من خالص الصلف[٢]
جيلان جمعت الأشياخ بينهما	فى الشرق والغرب جمع اللام والألف
اليوم فرقت الأعداء بينهما	وليس جمعهما يومًا بمؤتلفِ
أين الشيوخ الألى حازوا لدينهم	دنيًا وما شرفًا أبقوا لذى شرف
أين الملوك التى كانت تهابهم	أسد الشرى وألو الإحسان والظرف
أين العطايا التى كانت تجود بها	وفاة عهدٍ علوا من فوق كل وفى
أين الفحول الألى ما زال عندهم	وإن تمنَّع خافى العلم غير خفى
أما تراها خلت من كل ذى ثقةٍ	وكل حَبْرٍ بمد البحر متصف

وبعد ذلك يبدأ فى ذكر المدن الإسلامية التى لم تعد لها مكانتها الإسلامية السابقة لتفرق المسلمين وتنازعهم نتجة مؤامرات المستعمرين وكيدهم ضد الإسلام والمسلمين فيقول:

مِن آل فاروق أمست « فوتَ » مقفرةً	ومن بنيه بناة المجد والشرفِ
وتلك « كجور » من « لتجور » خاليةٌ	جرَّت عليها السوافى ذيل ملتحفِ

---

(١) الأدب السنغالى العربى جـ ١ ص ١١٧ .

(٢) الصلف: قلة الخير.

« فسيغ » فيها لنا من قبل ذا وطن ... ولى مواطن فى الأرجاء من « جُلفٍ »
و« كُسْبِ » أسلافنا حلوا بها وكذا ... فى « بند » لى سلف ناهيك من سلف
لى إخوةٌ فى قصور « انجورِ » منزلهم ... ولى بمدين إخـــوانٌ ذوو ظرف
ولى « بطورُ » جـدودٌ طالما رفعت ... راياتهم وأضاءت ظلمة السدف(١)
يا أهل « ماسن » كونوا وفق إخوتكم ... ولا تميلوا إلى بغضٍ ولا جنف
قولوا لتمبكت أو للجرم ليس لكم ... إلا تجنب أهل الزيغ والسخف
يا أهل هوص وأهل الغان فاتفقوا ... ولا يكن عنكم أمر الوفاق خفى
وإن تفرقكم بالقول ألسنةٌ ... فالدين يجمعكم فى البيت ذى الغرف
أو فرقتكم طريقٌ وهى واحدةٌ ... فى الأصل مرجعها للبيت ذى الشرف
فالكل صار لدين الله متبعًا ... ولم يمل أبدًا عن دينه الحنفى
مواطن كلها فى الأصل متحد ... وأهلها طالما مالوا إلى الترف
قد زين الله بالإسلام بهجتها ... والدين قوّى بها ما كان من ضعف
وكل من كان فى البلدان ذا شغفٍ ... بموطن فأنا بطور ذو شغف
فكم ظللت بها الهو بغانيةٍ ... ما شئت من حور فيها ومن هيف
تمشى الهوينا فترتاح القلوب لها ... مشى النزيف بكاس الخمرة الأنف
أوى إلى فتيةٍ شم قياسهم ... بالناس مثل قياس التبر بالخزف
وكلهم بالحيا والجود متصفٌ ... باللوم ما أحدٌ منهم بمتصف
وكلهم من ثمار المجد مقتطفٌ ... ولم يكن للخنا يومًا بمقتطف
يا سنغال علوت الأرض منزلةً ... بالحاج فالحاج للعلياء كالشنف(٢)
فمن مواهب مثل السحب واكفةٍ ... ومن قريضٍ كمثل الدر فى الصدف

---

(١) السدف : الليل المظلم. (٢) الشنف : الذى يلبس فى أعلى الأذن.

من فى البرية كالفاروق مجتهداً ضاءت بأسيافه الدنيا من السدف[1]
له محاسن فى الدنيا غدت مثلاً فيها الشفاء لداء الجهل والسنف[2]
أمَنْ يبارى الفتى البكى [3]فى حكمٍ أمن يشابهه فى الزهد والتحف
ومن علومٍ خفيات يحررها ما بين متفق فيه ومختلف
ثلاثة ضنت الدنيا برابعهم طابوا كما طاب طعم الماء بالرضف[4]
يشفى بريقهم من كان ذا وصبٍ فكونهم مرهم العاهات غير خفى
يا ليت قومهم ينضم جمعهم حتى يروا نهضة السودان فى الشرف

وأخيراً يختم القصيدة بالابتهال إلى الله أن يحسن ختام المسلمين كما أحسن بدأتهم وأن ينهضهم من عثرتهم وأن يمكنهم فى الأرض ويرجع إليهم حقوقهم المغصوبة وحريتهم المسلوبة وأن ينصرهم على أعدائهم فيقول:

يا رب أحسن ختام المسلمين كما أحسنت بدأتهم فى سابق السلف
وبالتمدن مع تمكين نهضتهم والأمن من كل عادٍ مائل الطرف
أدم تراقيهم وارجع حقوقهم وانصرهم زلفًا تأتى إلى زلف[5]
ولتمض حرية منهم لتطفئ ما فى القلب من لافحات الهم والأسف
الطف بجاه رسول العالمين بنا ونجنا رب من هون ومن تلف

ولا شك أن مراثى المدن فى غربى أفريقيا متصلة النسب بمراثى المدن فى المشرق الإسلامى إثر حملات التتار وبمراثى المدن فى الأندلس إثر سقوطها فى يد النصارى الأسبان.

---

(١) الشيخ عمر الغوتى هو المقصود بالفاروق. السدف: الليل أو الظلام.
(٢) السنف: لعله يقصد داء الفزع من قولهم عى فلان بالإسناف.
(٣) يعنى به الشيخ الخديم أحما بمبا البكى.
(٤) الرضف: حجارة يوقد عليها فيلقى فى الماء إذا برد الزمان
(٥) الزلف: التقدم.

وهناك مراث أخرى كثيرة لا تخرج عن النمادج التى ذكرنا فى شكلها ومضمونها، ولذا نكتفى بهذا القدر خوف التطويل على أن القارئ لمراثى شعراء غربى أفريقيا يلاحظ أنها تتسم بالسمات التالية:

أن عاطفة الحزن موجودة كأصل من أصول الرثاء الذى يعد الحزن جوهرة فنجد الشاعر كثيراً ما يذرف الدموع ويظهر الحزن والتفجع الشديدين لفقد الميت غير أننا نلاحظ مع ذلك عدم الخروج عن التعاليم الإسلامية فى رثاء الميت بل إنه رثاء إسلامى يلتزم بأوامر الله تعالى، ويلتجئ الشاعر أخيراً إلى الله ويرضى بقضائه وقدره فعبد الله ابن فودى يقول فى رثاء صديقه مصطفى:

إن الرزايا فقدنا أمثاله   لكن رضينا ما قضى الجبار

وتقول أسماء بنت الشيخ عثمان فى رثاء صديقتها عائشة:

وإنى لحكم الله راضٍ وإنما   أراعى بما قد قلت حق الأخوةِ
ولا إثم حقًا فى الرثاء وقد رثى   النبىَّ أبو سفيان يوم الوقيعةِ

أما طريقتهم فى الرثاء فهى لا تختلف كثيراً عما هى عليه لدى شعراء المراثى فى الشعر العربى من حيث أنهم وصفوا المرثى بصفات مستحسنة لدى الناس فى المجتمع الإسلامى والأخلاق الحميدة والخصال المحمودة كالجود والكرم والحلم والصبر والشجاعة وما إلى ذلك، ثم إن المزايا العلمية من أهم السمات البارزة فى رثائهم للعلماء بحيث إذا قرأ المرء رثاءهم لأى عالم من العلماء سهل عليه أن يفهم الفنون العلمية التى طرقها المرثى وبرع فيها، فمثلاً يقول أحمد عيان سه فى رثاء حامد كن:

وليبكه العلم والتعليم مجتهداً   ولتبكه كتب التفسير والأثر
وليبكه النحو والفقه الصحيح كما   يبكى عليه بيان جاء فى الزبر

وأخيراً يذكرون أن هذه المزايا العلمية والصفات الحميدة قد ماتت بموت المرثى ودفنت معه فى قبره فمثلاً يقول الوزير الجنيد فى رثاء شيخه:

ولا بد أن تعشو العيون تحيراً　　لقد غربت شمس الفضائل بالسحر

وأخيراً نلاحظ أنهم مهدوا لقصائدهم فى الرثاء غالبًا بالثناء على الله وذم الدنيا فى أكثر الأحيان وخير مثال على ذلك قصيدة الشاعر إسماعيل بن محمد فى رثاء شيخه شعيب بن الأمير محمد التى يقول فى مطلعها:

الله أكبر ذى الدنيا لفناء　　خلقت وما خلقت أخى لبقاء

ونجد كثيراً منهم لا يمهدون لقصائدهم فى الرثاء وإنما يدخلون فى موضوعاتهم مباشرة مثل قصيدة الوزير الجنيد السابقة وقصيدة أحمد عيان سه وغيرهما. ومما يلاحظ أيضًا فى الرثاء عند هؤلاء الشعراء أنهم يجمعون فى قصيدة واحدة أو فى الرثاء الواحد بين الندب والتابين والعزاء على غير ما ترتيب فى ذلك، ولا أجدنى بحاجة إلى التمثيل لذلك فبأدنى نظرة فى رثاء القوم يتبين للقارئ مصداق ما قلت.

وخيراً يلاحظ أن صور الرثاء كانت ممتزجة بالمدح حيث يمدحون الميت بإظهاره دين الله وإقامته الواجبات وتعليم المسلمين وإرشادهم إلى سبل السلام هذا إن كان من العلماء وإن كان من غير العلماء فإنهم يمدحونه بالصفات المستحسنة والخصال الحميدة ولا غرابة فى ذلك فقديمًا قال ابن رشيق القيروانى: «وليس بين الرثاء والمدح فرق، إلا أنه يخلط بالرثاء شئ يدل على أن المقصود به ميت مثل (كان) أو (عدمنا به كيت وكيت) وما يشاكل هذا ليعلم أنه ميت» [1].

الغزل:

أما الغزل، فلم يكثر شعراء العربية فى غربى أفريقيا القول فى هذا المجال الخصب الذى يمثل العاطفة الإنسانية والمشاعر الوجدانية أصدق تمثيل.. فكثير من الشعراء قد استنكف القول فى هذا الفن وقليل من أطلق العنان لعاطفته لتجود بمشاعرها الفياضة فى هذا الباب.

---

(١) العمدة جـ ٢ ص ١٤٧، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء.

أما الذين تحرجوا القول فى الغزل فربما كان الرادع فى ذلك حرصهم على الاحتفاظ بمكانتهم الاجتماعية كرجال الدين وصونًا لأعراضهم من أن يسلقها الناس بألسنة حداد .. ومن هنا لم نجد عند هؤلاء ما يمت إلى الغزل بصلة، اللهم إلا ما كان افتتاحًا لمقدمات قصائدهم فى أغراضها المختلفة جريًا على عادة الشعراء القدامى فى المشرق والمغرب العربيين .. وحتى هذا القليل الذى قصد به المحاكاة والتقليد فإننا نجد أكثرهم يختمه بالزجر عن تعاطيه وإثبات عدم جدواه وذلك قبيل بدئه فى غرضه الأساسى من القصيدة .. وكأنه بذلك يقرر مقدرته على مجاراة الشعراء القدامى فى نسيجهم وإن لم يشعر بشعورهم..

أما الفريق الآخر الذى لم يجد فى صدره حرجًا من البوح بعاطفته الجياشة وصبابته الدافقة عن طريق الغزل، فينقسم إلى صنفين:

صنف كان صادق الشعور فى تجاربه الغزلية فوصف مشاعره ولواعجه وما يقاسيه من تباريح الهوى وصفًا لم يخرج فيه عن المبادئ الإسلامية السامية وتعاليمه الحكيمة فلم يفحش فى شعره ولم يتبذل..

وصنف آخر تغزل ووصف محبوبته بدافع التقليد والمحاكاة ونشك فى صدق تجاربه، وإن كان هو الآخر لم يخرج عن التقاليد الأخلاقية فى المجتمع الإسلامى فى شعره .. ونعتقد أن الشاعر السنغالى المجيد يونس ذا النون فى غزلياته من هذا القبيل، ولنستمع إلى قيثارته فى التغزل بفتاة من «سانلوى» المدينة التى كان يدرس فيها، فيذكر فى غزله بعض أحيائها مثل «لود» و«سندوس» و«كرجان»، فيقول:

يا ربة الحسن بل يا جنة الرانى	فأنت إنسان عينى كل إنسان
إنا نرى فيك أوصافًا يقارنها	نهدٌ وقدٌّ كرمان ومران
إنسانةٌ ما رأت عينى مباسمها	إلا وشيطانها للحاج أنسانى
فوالذى خلق الإنسان من حَمإٍ	أن ابنة الأندرى جنى وشيطانى
دموعها درة بيضاء ناصعة	وأدمعى كالعقيق الأحمر القانى

نونان في حاجب قوسان في وتر رمتهما تحت صبح الوجه عينان

عينان فوقهما نونان تحتهما تفاحتان على مُبْيَضٍ كثبان

الماء والنار في خدِّي وفي خلدي لم يجتمع قبل هذا اليوم ضدان

نيسان دمعي عند البحر درته بل صار سُمًّا بفكي كل ثعبان[1]

نفسي فداء لسمواء برهرهة أفرغت في حبها كيسي وكيساني[2]

له غدت أوجه الغادات ساجدةً ما بين «لود» و«سندوس وكرجان»

إن كنتُ في سفرٍ فالقلب في حضر وذاك أوقد أشجاني فاشجاني

عرفت دهري أحوالي فنكرها يا ضيعةً بين عرفانٍ ونكران

أوطار نفسي عن الأوطان قاصيةٌ فشقني بعد أوطاري عَنَ أوطاني

ذو النون يكتب ذا فورا ويسرده وشوقه ليس يبليه الجديدان

بلّغ سعاد وإن شط المزار بها بانني في هواها جدُّ حيران

كم رامَ دهري أن أسلو وهددني بجوهري صارمي صدٌّ وهجران

صددت عنه ولم تنجح مقاصده فبعد ذلك صافاني وواخاني

كان الهوى قبل هذا ساعدي ويدي فما أهبت به إلا ولباني

إن صادفتني خطوبٌ من أماكنها فلا أخاف وعينُ الله ترعاني

وبعد وصف صبابته وكلفه بسعاد، تلك التي تغنى بها بعض الشعراء القدامى في غزلهم، يتوجه ذو النون بالرجاء إلى الله المؤلف لما بين القلوب أن يجمع شمله مع سعاد لينعما بالوصال في أمن ودعة وطول عمر..

ولعل القارئ بعد هذه الأبيات يتهم حكمنا على الشاعر بزيف التجربة بالتسرع والإجحاف ولكنه سرعان ما يغير رأيه عندما يقرأ الأبيات الباقية من القصيدة، ولنستمع إليها:

---

(١) نيسان: بالفتح سابع الأشهر الرومية ومن خواصه المطر الكثير.

(٢) كيسي: أكياس دراهمي. كيساني: عقلي. وبرهرهة: حسن بصيص لون البشرة.

لعل رحمه ربٌّ العرش تجمعنا فلا شماتة نخشاها لدى الشان

فى ضمن أمن ويُمنٍ صاحبا دعةٍ وطول عمرٍ بخلان وإخوان

من قبل قد كانت الأشواق جملتها أحكامها تحت تصريفى وسلطانى

لم يلقنى عاشقٌ يمنى له مكن فى الشوق إلا وحيانى وبيانى

سبقت بالشوق أهل الشوق فاستبقوا إلى حِمَاىَ وجابوا كل ميدان

وقد أقروا بأنى مفردٌ علمٌ فالدهر يخدمنى والنصر يلقانى

بعد الفناء بقاء للملم به فاعجب فديتك من باقٍ لدى فان

إنى أقول لمن يبغى مكاتبتى ذو النون سلطان أهل الشوق عنوانى

فالشوق يخفض من قد كان ذا شرفٍ عدلاً ويرفع هيَّان بن بيانِ

فكن مجدًّا مجيداً إن وصفتَ ولا تقنعْ بباكورتى نحوٍ وأوزانِ

إلا إذا كانتا فى جنبِ غاديةٍ تفض زهر المعانى البيض للرانى

فللمعانى بديعٌ راق منظره يبدى فنون بيان تحت تبيان

أرأيت من ذا الذى تسمح له دواعى الحب ووجيب الفؤاد ولوعة النوى ومقاساة تباريح الجوى أن يثنى العنان إلى المطالبة بسلطة العاشقين وقصب السبق فى سباق المحبين، ذلك لعمرى لم يجرب لواعج الحب وعذاب الفؤاد.

هذا رأينا فى ذى النون .. ويؤكد ذلك استمرار الشاعر على هذا النمط فى جميع غزلياته من ذكر الصبابة وما جرعه البين من حزن وأسى حتى غدا عذوله يرثى لحاله ويذرف الدموع شفقة عليه، ولا يتناول من أوصاف محبوبته إلا صفاتها الحسية والتى هو فيها مسبوق وعالة على من سبقه من الشعراء فمحبوبته بدر فى خدر ورشا غزال إن تثنت أرت غصن بان، ولعل أشمل المقطوعات الغزلية التى تمثل مذهب الشاعر فى هذا الفن المقطوعة التالية:

فلم تر عينى قبل حوراء ماشيًا غزالاً بدا بدراً على الأرض ماشيا

فاسنانها كالعاج حسنًا وكم شجٍ ولما رآها قال يا ليتها ليا

ولا تتجلى لامرئ فى صلاته ... ولو صالحٍ إلا وأصبح ساهيا
هى الغادة الهيفاء كالروض بهجةً ... ويُخجِل ريّاها الأريج الغواليا
فقلبى لأجل الحُزن أصبح حائرًا ... ودمعى لأجل الشوق يملأ واديا
فيا لك من ريانة الساق إن بدت ... وريحانة الساقى إذا بات شاديا
لها شنبٌ يلهى الهنود وقامة ... تريك قضيب البان لم يك ذاويا
فديتك يا روح الجمال وذاته ... بنفسى وأهلى ثم مالى وماليا
فسلم عليها يا نسيمُ وقل لها ... إلى اليوم حبل الشوق لم يك باليا

وغير خاف أن هذه الصفات الحسية الغزلية قديمة قد رددها الشعراء القدامى من قبل، وأغلب الظن أن ذا النون قد اقتحم حمى الغزل ليثبت مقدرته على النظم فى معانيه، فمحبوبته نجدها تارة « سلمى » وحينًا « سعاد » وهو مغرم بالتفوق فى سباق العاشقين متيم بالإمارة عليهم كما رأينا فى الأبيات السابقة وفى اللاحقة يقول:

تقيسون بى قيسًا ضلالاً وبيننا ... مراحل تثنى عزم كل قطاةِ
وأيام قيسٍ فى زمانى ساعةٌ ... فكم بين بحرٍ زاخرٍ وأضاة
لقد علم الأيامُ والحالُ شاهدٌ ... بأن جميع العاشقين عفاتى
غدت أمراء الشوق تحت أوامرى ... ويرجو وعيدى كلهم وعداتى
لقد جنحوا للسلم حين بدا لهم ... تجلى جلال القهر من سطواتى

وإذا تجاوزنا ذا النون وأثنينا العنان على محمد البخارى النيجيرى نجده فى غزلياته سائرًا على منوال القدامى فى وصف المحبوبة سواء فى مقدماته الغزلية لأغراض مختلفة من مدح وفخر وما إلى ذلك .. أو فى قصائده التى خصصها لهذا الغرض .. ومما مهد به للمدح قوله:

فجعتْكَ أم الفضل بالهجران ... فبقيت بين الناس كالسكران
وكأن فى قلبى وجوفى جمرةً ... مذ بعدتنى من جناها الدانى

قامت تراءى فى القصور بفاحم رجلٍ ومقلةِ شادنٍ ظمآن

وبجيد مغزلةٍ وساق خدلة وترائبٍ كالدر والمرجان

وقد سبق الحديث عن هذه الأوصاف الحسية للمرأة عندما تناولنا هذه القصيدة فى المدح حيث نظرنا لهذه الأوصاف فى الشعر العربى القديم.

ومن قبيل المقدمات الغزلية لهذا الشاعر الأبيات التالية:

وبيضاء عجزاء ممكورةٍ مبتلةٍ كمهاة الرمال

بذلت لها مهجتى وفؤادى وما كان لى من عيالٍ ومالِ

فلا تعذلوني بما قد صنعت فذاك قديمًا صنيع الرجال

سبتنى بأسود مغدودن وحفٍ أثيثٍ سحاحٍ جفال

وعين مهاةٍ وثغر شتيت وذى أشر مثل شوك السيال

وخدٌ أسيلٍ وخصر بتيل وردف ثقيلٍ وسوق خدال

وخَلْق عميم وخُلق كريم وقولٍ رخيمٍ وحسن الدلال

لقد قسمت بين حقف وغصنٍ وبين المهاة وأم الغزال

سلا القلب عن كل رعبوبة سواها وما القلب عنها بسال

أأسلو وأنت رشوق ألوف أنوفٌ ونحرك مثل الهلال

وثغرك در وريقك خمر ووجهك بدر تحيت الليال

لك الفضل فى الناس يا أم عمرو حويت مع الحسن كل المعال

فالشاعر يصف محبوبته العجزاء الممكورة بمهاة الرمال قد سبته بعينيها الحوراوين الدعجاوين وشعرها الفاحم الأثيث وثغرها الشتيت ذى الأشر وخدها الأسيل وخصرها البتيل وردفها المكتنز وساقها المعتدل وهكذا دواليك..

وكل هذه الأوصاف الحسية للمرأة قد استهلكها الشعراء القدامى وإن كان الشاعر قد اهتم بصفاتها المعنوية حيث أشاد بخلقها الكريم وأنها حوت بجانب

الحسن كل المعالى وبعدت عن سفاسف الأمور فهى تجمع بين حسن المظهر وحسن المخبر .. ولنعرج الآن على قصائده الغزلية حيث يقول :

أخيال آمنة التى | من دونها جوب القفارْ
قد هجت أحزانًا لقلـ | ـبى المستهام المستطار
وسلبت عن نفسى القرا | ر ومطت ما بى من وقار
وتصارم الأجفان منـ | ـذ نأت ديارك عن ديار
ما تلتقى إلا على | دمع على الخدين جار
حييت يا أخت الزبرجد | والزبارج والدرار
ووقيت من حوب يشيـ | ـنك والملمات الكبار
وحياة حبى فيك ما | للقلب دونك من قرار

وهو فى الأبيات السابقة يصف عمل الغرام والعشق به وكيف هاج خيال محبوبته حزنه الدفين وهواه الجامح فسلبه العقل والوقار، فهو منذ نأت عن دياره لم يذق طعم الكرى ولم تغتمض عيناه بل ظلت تذرف الدموع تولها وصبابة وشوقًا إليها، كيف لا وهى التى تشبه فى الحسن والجمال الزبرجد والدرر .. ثم يدعو الله لها بالوقاية من كل ما يشينها ويدنس شرفها ويقض مضجعها .. وأخيرًا يقسم لها بالحب بأن قلبه ليس له قرار بعدها .. وله فى قصيدة أخرى :

هاج لعينى مع دمعٍ دما | طيفٌ أتى من رشإٍ آدما
يا أيها الطيف الذى زارنى | لو كنتَ حقًّا لشفيت الظما
يا لائمى فى حبِّ رعبوبةٍ | كلؤلؤ الغواص أو كالدما
لطيفة الكشحين ممكورةٍ | ترمى الورى عن لحظها أسهما
أقصر فما أنصفت حقًّا وما | نلتَ من الرشد نصيبًا وما
ما نظرت عينى إلى مثلها | حسنًا وإحسانًا ورب السما
قامت ترينى يوم ودعتها | كشحًا لطيفًا طيه أهضما

إلى أن يقول:

ذكـــرتهـــا وهنًا وكـم دونهـــا جـوب قـفـارٍ ليس فـيـهن مـا

فهذه الأوصاف التى خلعها على المحبوبة كلها أوصاف قديمة قدم الشعر العربى فهى تشبه لؤلؤ الغواص وهى كالدمى، لطيفة الكشحين ممكورة تفترس الناس بلحظها .. وإن كان يمتاز شعره بالتدفق والسهولة.

ولعل غزل هذا الشاعر لم يقع تحت ضغط الحب ودواعيه، وإنما كان فى غزله مجاريًا للشعراء القدامى ومقلداً لهم، ويدل علي ذلك ما تصدر به مجموعة أشعاره حيث كتب على المخطوطة الموسوعة بـ «الميل على حب النساء» ما يلى: «هذا من بعض قصائد محمد البخارى ابن الشيخ عثمان ابن فودى تغمدهم الله بالرحمة والرضوان .. واعلم أنه لما كانت القلوب مجبولة على حب النساء والميل إليهن افتتح جل قصائده بذكر شئ من محاسنهن وخالص صفاتهن تبعًا لأكثر الشعراء ليكون أدعى إلى الإنصات عند السماع فتصغى إليه الأسماع وتميل إلى معانيها الطباع».

ولكن يجب أن لا يخدعنا مثل هذا، إذ نشم فى ثنايا بعض الأبيات صدق التجربة وحرارة العاطفة.

هذا ويقاس على الشاعرين: يونس ذى النون السنغالى ومحمد البخارى النيجيرى بقية الشعراء الذين اتخذوا الغزل تمهيداً لأغراضهم الشعرية المختلفة، وهؤلاء لا يختلفون كثيراً عنهما من حيث السير على نهج الشعراء القدامى فى وصف الصبابة ووصف المحبوبات، فقد استعاروا صورهم وألفاظهم بل وحتى أسماء المحبوبات من الشعر القديم، كسعاد وسلمى وسليمى ومية وما أشبه ذلك.

ويبدو أن هؤلاء الشعراء تحرجوا من البوح بأسرار قلوبهم خوفا على مكانتهم الاجتماعية والدينية، إذ نشم من وراء بعض أبياتهم صدق التجربة وحرارة العاطفة وذلك عندما يفلت من أيديهم زمام المحافظة فيطلقون العنان

لعواطفهم الجياشة غير أنهم لا يلبثون فى هذه الحالة أن يردوا جماح عواطفهم ليعود إلى التقليد مرة أخرى حتى لا يفتضح أمرهم.

ولعل هذا التحرج هو الذى دعا محمد البخارى فى قصائده التى أفردها للغزل أن يستعمل الطيف أو الخيال حتى لا يظن به الظنون، كما حدا ذلك بعضهم إلى الدعاء للمحبوبة بان يقيها الله من كل ما من شأنه أن يدنس شرفها وطهرها .. ولكن تدفق أسلوبهم يفضحهم، نعم إنهم محافظون ولكنهم بشر.

وهناك ظاهرة قديمة شاعت فى غزل هذا الصنف من الشعراء وهى ظاهرة «العذول» فها هو ذا ذو النون يقول فى إحدى غزلياته:

يقول عذولى هل تموت من الأسى ... رأيت سكوتى عنه عينَ جوابى

وفيها يقول أيضًا:

وأهل الهوى عدوّا الشكاية فى الهوى ... نباحَ كلابٍ أو طنين ذباب

ولاحٍ رآنى ما أصبتُ وإننى ... مصابٌ وإنى فى أشد عذاب

فقلت له من كان يمشى على الثرى ... ولم يك صبًّا فهو عين مصاب

فليس امرؤٌ قد مات شوقًا كغيره ... وما طعم شهدٍ يا أخى كصاب

ويعد الشاعر السنغالى محمد المصطفى آن من أولئك الذين لم يتحرجوا من البوح بطوايا قلوبهم من الحب .. غير أنهم فى ذلك لم يخرجوا عن المبادئ الأخلاقية والتقاليد الإسلامية فى هذا المضمار.

فها هو ذا يشكو صبابته وفرط وجده وشدة كلفه بفتاة اسمها «ياسمين» فيقول:

صادت فؤادك ياسمين وأثخنت ... فيه الجراح ولم تجد بعلاجِ

قد حركت منك الكمين فأهملت ... بعد الحراك وآثرت بهياج

وقال فيها أيضًا:

هضماء ليس بها في وجهها شحب   والمشى منهـا على غنجٍ ورجـراج
رحـماك رحـماك يا أختى ولى وطرٌ   فاقضى ولا تهملى يا نشوتى حاجى
وافـيتـهـا ليلة يعلو بهـامـتـهـا   رمز الجمال ونعمى الخاطب الراجى
وقـد عـلا الصـدر رمـانان زانهـمـا   مـواقع النصب فى زهوٍ كـذى تاج
يا رب قـدر لهـا لى زوجـة صلحت   حـالى وحـالتـهـا فى خيـر منهـاج

حقًا إن شاعرنا كان جد كلف بهذه الفتاة الفاتنة ولكنه فى هيامه وولهه بها ذو قصد شريف - كما يقولون - ولذا فقد ختم المقطوعة بالتضرع إلى عالم أسرار القلوب أن يقدرها له زوجة على شرع الله وسنة رسوله ﷺ .

وشاعرنا مولع بختم قصائده الغزلية بمثل هذا التضرع فله قصيدة أخرى نظمها ليلة أن أظهرت له ياسمين ما أضمرت وأظهر لها نياته فختم القصيدة بقوله :

يا رب هاذى يســرن مـا أبتـغى   بزواجـهـا إذ راعنى إكـرامـهـا

هذا ويعد أيضًا ممن تغزلوا استجابة لوجدانهم وحبًا فى تسجيل تجاربهم العاطفية الأديب النيجيرى الشاعر عمر إبراهيم فى قصيدته التى سماها : « الكون موات لولا الحب » وهذه القصيدة تحتوى على ستة وستين بيتًا جاءت فى شكل موشحة فى رقة ألفاظها وعذوبة موسيقاها ونظام أبياتها (١) :

يقول فيها :

يا حبيبى يا حبيبى

اصغ سمعًا للحبيب

هـل أتـاك اليـــوم أنـى   صـرت عظمًـا فى الشـعـار
ذهـب اللحـم بخــارًا   صـاعـدًا من حـر نار
مـاثلاً فـوقى سـحـابًا   لا أرى ضــوء النـهـار

---

(١) حركة اللغة العربية وآدابها فى نيجيريا ص ١٩٤ .

يا حبيبي يا حبيبي

هل تبالي بنحيبي

إن يطل صدك عني يذهب الحر عظامي

أختفي عنك ولا تسمع من بعد كلامي

إن تشأ ذاك وأخشى علّ ترمي بملام

لو ينادي (غير شئٍ) قلت أنعم بسلام

يا حبيبي يا حبيبي

طيفك اليوم طبيبي

كنت أرجو الزور لمّا بان ثغر لابتسام

ورأيت النور حولي قربه باب السلام

ذلك الرضوان يأتي فاتحا باب مرامي

فإذا بي صرت آدم آه لا شجر أمامي

يا حبيبي يا حبيبي

جئت بالأمر العجيب

يا حبيبي لم يملني عنك شر الوسواس

زال انديز وأما أنت في القلب فراس

يفرح الناس بخمر وأنا ثغرك كاسي

لذة إن نبض القلب بها قرّت برأسي

يا حبيبي يا حبيبي

هل أنادي من مجيب

لذة تنشئ في جسمي ما تهواه نفسي

فأرى الكون بشكلٍ غير ما بان بأمس

كـلـه مـســـك وزهـرٌ كـعـروسٍ قـرب عـرس
وأرانـي الحب مـا لـم يـرنـيـه نـور شـمـس

يا حـبـيـي يا حـبـيـبى
ريقكم خـمـرى وطيـبى

لـو أبـى ذاك لـصـار الـقـلـب وقت العـشـق آبقْ
بـل تـراه وفـق صـوغ الـرب للأحـبـاب عـاشـق
فـأبر الـنـاس مـعـطى الـحب حـقًـا ثم فـائق

يا حـبـيـي يا حـبـيـبى
نقـصـه شـر الـذنوب

إنما الـكـون بـاقـصـاه مـواتٌ فـى مـوات
فـحـيـاة زينت ذاك بـشـتى الحـسـنات
ثـم راقت هـى بـالحـبْ حـيـاةٌ لـلـحـيـاة

يا حـبـيـي يا حـبـيـبى
اسـقـنيـه بـذنـوب

واسـأل الأشـجـار عن أزهارهـا من فـوق غـصـن
واسـأل الأطيـار عـمـا هـاجـهـا حين تـغـنـى
وارقـب الـوحـش ولا تـخـش تـر الـعـشـق بـعـينِ
واسـأل المنكـر فـى الجنـة مـعـنى حـور عين

يا حـبى يا حـبـيـبى
أعطنى فـوق نـصـيـبى

يا حـبـيـبى طيـفـك المحـبـوب لى خـيـر مـرادى
بـعـد جـرمٍ لـك لا يمـنع فـوزى فـى رقـادى

سل فـــؤادى مـــا يقـــاسى لحظةً حين انفـــــرادى
انفــــرادى لى ضـــــلالٌ وتلاقـــــينا رشـــــادى
يا حـــبـــيى يا حـــبـــيبى
أنت ســقــمى وطبـــيــبى
قـــــالت الأنجم لما شـــعــرت من حـــرٍّ مـــا بى
إنمـا الحب عـــــــذاب دونه كـل العـــــــذاب
قـــد سكنا مطمـــئنا ت على رغم انجـــــذاب
لو عـــرفنا الحب تلقـــا نا على حـــال اضطراب
يا حـــبـــيى يا حـــبـــيبى
جـــئت بالقـــول العـــجـــيب
يا ذوات النور مـــا قـــو لك هذا بـــــــداد
إن يكن هذا عـــــذابًا فـــهـــو عـــذبٌ فى فـــؤادى
فـــيك نار ثم لا حـــبْـــ ـــب اخـــمـــدى مـــثل الرمـــادى
اخلعى ثوب بيـــــاضٍ والبـــــسى ثوب ســـــواد
....
...........................(١)
اتـركى الحــب بنـا ينـــ ــزل فى مـــغنىً رحـــيب
قـــربن فـــاك خليلى مـــاؤه كـــالسلســبيل
لشـــفـــائى وحـــيـــاتى اســـقنى غـــيـــر القليل
وكـــأين من عليلٍ وكـــأين من قـــتـــيل
مـــاله فى الروح – لولا الـــ ـحب أحـــيى – من ســبـــيل

(١) سقطـة .

يا حـــبـــيــى يا حـــبـــيــبى

أحـــيـنى عـــمـــا قـــريب

لأرى مـــا قـــيل فى من مـــات صـــديقـــا ومـــؤمنْ

وشـــهـــيـــداً فى حـــروب الـــحب لا فى القـــتل مـــوقن

مـن نـعـــيـــم فـى جنـان لشـــهـــيـد «البـدر» كـامن

لـكـمـــال الحـــسن فى بد رى ذقت القـــتل ســـاكن

يـا حـــيـــاتى يا خلودى فـى مـــآبى المســـتطاب

فالشاعر يجاهر فى هذه القصيدة بعشقه العفيف فى حالة هادئة تلفحه فيها ذكريات الشوق والصبابة وقد برح به الضنى واستبد بخاطره فيرسم لنا صورته ولم يبق فيه إلا هيكل عظمى ملتف فى ثياب برح الشوق به وحر كبده حتى وصلت الحرارة إلى درجة الغليان، فاذهبت لحمه بخارا وصعد فوقه كالسحاب، فحجبت عنه الشمس فلا يرى لأجله ضوء النهار وأبى السحاب أن ينزل مطراً حتى يرى محبوبة الهيكل بجواره وعندئذ ينزل مطراً فيطفئ نار الشوق ويرجع البخار المتراكم إلى الهيكل ويصير لحماً كما كان .. أليست هذه الصورة البائسة للمحب الوله مدعاة للشفقة عليه وإهراع المحبوبة إلى إنقاذ هذا الهيكل قبل أن يستبد به الحر ويفتك به فيجعله هباء منثوراً، فيصبح أثراً بعد عين؟.

وشاعرنا غير عابئ بما يحدث له من الهلاك إن لم تتداركه المحبوبة بوصلها، وهو على حاله البائسة راض كل الرضا عن المحبوبة إن رضيت هى بهلاكه بسبب هيامه بها، ولكنه يخشى عليها لومة اللائمين إن هلك بسبب وجده بها .. ولو قدر له بعد الهلاك أن يتكلم وهو عندئذ لا شئ لقال لها لا تثريب عليك أنعمى بسلام.

وأصداء الدين واضحة فى هذه القصيدة، فهو عندما بان له ثغر الحبيب الذى يبعث على اللواعج والشجن لما يسرى فيه من الجاذبية ويلفه من السحر

والذى يجعله غير مطيق على التصبر على تلك النضرة يراها ولا يعتصر عودها وينعم بجناها، فبدا له كأنه يدخل الجنة فرأى باب السلام وعليه رضوان صاحب الجنة يوشك أن يفتح له الباب ليدخل ثم خاب ظنه فأصبح كأبينا آدم عليه السلام مطروداً من الجنة، ولكن كيف يطرد وهو لم يذق الشجرة كما ذاقها أبونا آدم عليه السلام . . وفى القصيدة أصداء أخرى للدين وألفاظ وتعابير قرآنية كلها تدل على التأثر الدينى الذى يكتسح جميعِ أغراض الشعر العربى فى غربى أفريقيا.

وواضح أن الشاعر فى هذه القصيدة الغزلية الرقيقة حاول أن يخرجها فى شكل موشحة.

وللشاعر السنغالى الشيخ الهادى تورى قصائد فى الغزل يقول فى بعضها رداً على عذوله:

عذولى تراك اللوم لم استطع صبراً	بل أمرى شئون الدمع أو أنزل القبرا
زفيرى ودمعى جمرةٌ تحت وابلٍ	فيا عجبًا من وابل جاوز الجمرا
فكيف تصوم الصبر صبًا متيمًا	وفى قلبه تجرى جيوشُ الهوى تترا
وكيف يطيق الصبر من كان تائهًا	وكان جواه يملأ البر والبحرا
وقالوا مماتى فى جواى شهادةٌ	بها استحق الوصل والفوز والأجرا
وإن سُلُوَّ الصب عين ارتداده	كذا الحكم فى شرع الهوى فاعلم الأمرا
وإنى وإن كنت المعنّى كما ترى	فكل ذنوب العالمين ولا كفرا
وهذا الذى لقيت عندى هيّنٌ	وفى جنب من أهوى أرى كل ذا نزرا
لأقسمت أنى لا أفيق من الجوى	ومن سكرة تنمو ولا أشرب الخمرا

ومعانى الشاعر فى الرد على العذول مطروقة وإن كان مجيداً فيها.

ونجد أصداء الدين فى بعض ألفاظه وتعابيره مثل: «شرع الهوى»، «الشهادة»، «الفوز»، «الأجر»، «الارتداد»، «الكفر»، وكذا الاحتراز منه.

وهناك شاعر سنغالى تسنم منصب القضاء وهو القاضى مجخت كَلَ ولم يتحرج من تسجيل مغامراته الغرامية مجاهراً بالعشق العاهر والعبث الداعر والخلاعة الماجنة ناسجًا على منوال امرئ القيس وعمر بن أبى ربيعة غير مكترث بما يفرضه عليه مجتمعه وتقاليده الإسلامية ومكانته الاجتماعية كقاضى الدولة الذى تصدر القضاء ردحًا من الزمن لغزارة علمه وعدله وجرأته فى الحق ولو كان على السلطان.

فها هو ذا يسجل إحدى مغامراته فى سبيل عشيقته عائشة، فوصف فرسه «فضل الله» ثم وصف محبوبته وكيف استطاع أن يهتصر عودها وينعم بجناها فقال:

تذكرت أيام الهوى فالليـاليـا	فالأيام من لذات شرخى شبـابيـا
إذ أركب طرفًا أسود اللون حالكًا	كما نشر المصبوغ فى الليل داجيا
أخـا ملهبٍ ذى درة لهـديره	دوى كأصوات الخذاريف حاكيا

إلى أن يقول:

فلله در المهـر لما امـتطيـتـه	فـأبلغنى دار الخريدة طافيـا
فـجئت وباب البيت أغلق مرتجًا	فقالت من المستفتح الآن بابيا
فـقلت بأخفى الصوت سرًا ولينةً	أنا مكل المعروف زرتك ساريا
معذب قلبٍ قد دعانى إلى السرى	دواعى هواك فاستجبت الدواعيا
أعائش قومى وافتحى الباب واسقين	لنا من لطول العهد أوشك باليا
فقامت بهينوم (١) قطوفًا بطيئة	خفيفة خطواتٍ كما كنت راضيا
فلمـا دخلناه وقد نام أهلهـا	بلغنا بتعريس لديهـا الأمـانيـا
فبت لدى حوراء تنسى ضجيعها	أوامـر ربى كلهـا ونواهيـا
منعمـة عجزاء أعدل قـامة	فلا قصر شين لا ولا طول غاليا

(١) الهينوم: الصوت الخفى.

تميس بأنبوبى سقىٍّ وتنثنى   بجيدِ محلى من ظباء لآليا[1]
وتنظر بالعينين من نعجةٍ مها   على لحظات كدن يقطعن باليا
وتنغى بخاتامٍ سوىٍّ معطر   برائحةٍ من دونها المسك زاكيا

والشاعر هنا قوى الشبه فى مغامراته العاطفية بامرئ القيس، فهو يدب إلى حبيبته ليلاً يتعرض للقتل ويتخطى الحراس ليحظى بما يريد. ومغامراته هذه تذكرنى بمغامرة امرئ القيس التى يقول فيها:

سموت إليها بعد ما نام أهلها   سموّ حباب الماء حالاً على حالِ
... إلخ [2]

ترى ألا نلاحظ الشبه القوى بين هذه المغامرة وتلك؟

أما أوصاف القاضى التى خلعها على المحبوبة فقديمة وإن كانت مطابقة لما يصف بها السنغالى أو الأفريقى عمومًا المرأة ويتصورها عليه من الحسن والجمال.

وبعد .. فقد رأينا كيف تناول الشعراء فى غربى أفريقيا هذا الغرض بنوعيه .. وكيف التزموا التقاليد الإسلامية فى التعبير عن عواطفهم بعيداً عن العهر والعبث الداعر والخلاعة الماجنة، باستثناء القاضى مجخت كل السنغالى. وأغلب الظن أن مجاهرته هذه من قبيل ما عرف عن الشعراء من أنهم فى كل واد يهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون .. وخاصة عندما نعلم أن القاضى قد كان له منافسون علي منصب القضاء الذى ظل مستأثراً به مدة طويلة، وقد كانت بينه وبين منافسيه معركة جدلية دامية، تراشق الفريقان فيها بسهام من منثور الكلام ومنظومه، وكان القاضى فى ذلك هجاءً مقذعًا فى الهجاء ويكاد يكون المنفرد بهذا اللون من الشعر بين شعراء المنطقة، وما سمعنا أن أحداً من معاصريه قد هجاه بدعارته أو اتهمه فى أخلاقه رغم وجود البواعث النفسية لهذا الاتهام لدى منافسيه والذى من شأنه الإطاحة بالقاضى من منصبه.

---

(١) تميس: تتبختر.

(٢) ديوان امرئ القيس ص ١٤١.

الوصف:

لم يخل الشعر العربى بغربى أفريقيا من فن الوصف، فقد ضرب شعراء العربية فى هذا المجال بنصيب لا بأس به، فوصفوا الطبيعة الصامتة والطبيعة المتحركة، ووصفوا الطائرة وبعض المشاهد التى خلبت عقولهم وأثارت مشاعرهم وعواطفهم. كما وصفوا الخيل والنساء وما إلى ذلك، غير أن القصائد التى أفردوها لهذا الغرض قليلة جداً، وأغلب شعر الوصف كان مبثوثًا بين ثنايا بعض القصائد التى قيلت فى أغراض أخرى غير الوصف كالمديح والغزل مثلاً. فها هو ذا الشاعر السنغالى أحمد عيان سه يصف الطبيعة الميتة أو الصامتة فى مقدمة قصيدته الترحيبية للجنرال الفرنسى « دغول » يقول فيها:

هذا اندر الخير مفترٌ أزهاره   زقاقه ازدهرت بالبشر إقبالا
والبحر يقذف بالأمواج طافحة   كأنها لبست بالروض سربالا
ثغور زهر من الأكمام باسمة   تضاحك السحب تحت الشمس غربالا
تخال فيه ثنايا الغيد من حببٍ   كلؤلؤ صبه الوسمى هطالا
كأنما السور والأزهار ضاحكة   من فوقه وعليها الماء قد سالا
سماء صحو نجوم الجو تكلؤها   قد أشعلت لرجوم الجن إشعالا
فى جنة باسقِ الأشجار يعمرها   قطوفها ذللت بالحمل إذلالا
فيها البنفسج والقحوان مبتسم   والورد من خجل من خدها نالا
والياسمين مع التفاح معتنق   إلى شقائق نعمان بها مالا
والطير تشدو على الأغصان مطربةً   والسفن تحمل فى البلدان أثقالا
والريح فى صفحات النهر جارية   تجر من فرحٍ فى القصر أذيالا

فشاعرنا قد أضفى على هذه الظواهر الطبيعية - من بحر ونهر وأرض وسماء وزهور وثمار ورياض وشمس وطيور - شعاعًا من نفسه الفرحة المغتبطة بمقدم هذا الجنرال وبذلك أدخل فيها الحياة والحركة .. هذا وللشاعر ذى النون

وصف رائع للأطلال استوفى فيه كثيراً من عناصرها القديمة من نحو ذكره لما بدل معالمها من رياح عواصف وأمطار شديدة وما حل بها بعد رحيل أهلها من قطعان البقر الوحشى والنعام والغزلان إلى غير ذلك، ولنستمع إلى قيثارته:

مغنى سعاد عفته هوج العثير ... وسقته واكفة الغمام الممطر

والعين ترفل فى مراقد حورها ... ترنو الرياض بكل طرف أحور

وترى مهاها البيض ترعى روضةً ... مطلولةً نمصت ببطن محسر

أطفالها يمرحن فى أطلالها ... فكأنها فى الشعب شعب العرعر

أوعالها تستن فى أوعارها ... ترعى خزاماها وغض الأزهر

وترى القلائص فى تيائر آلها ... فكأنهن سفائن فى أبحر

غزلانها تقفو مدى ظلمانها ... إن راعها صبحًا زئير غضنفر

فشاعرنا يرسم لنا لوحة فنية عن ربوع محبوبته التى عفتها الرياح الشديدة التى لا تبقى ولا تذر. وأزالت آثارها الأمطار الغزيرة، فأصبحت الديار بذلك مرتعًا للغزلان وأسراب النعام وقطعان البقر الوحشى والثيران .. وقد رسم لنا صورة للبقر الوحشى وهى ترعى أول العشب فى هذا المكان الذى أصبح روضة مطلولة، كما رسم لنا لوحة أخرى فنية للأوعال وهى تعدو مقبلة مدبرة ترعى الخزامى والعشب الغض، ثم رسم لوحة فنية لرحيل محبوبته فرسم لنا صورة القلائص وعليهن الهوادج يسبحن فى البيداء كأنهن سفن فى البحر. وأخيراً يرسم لنا صورة الغزلان وهى تقفو آثار النعام وقد فزعت من زئير الأسد المفترس الذى يهدد حياتها وحياة نسلها. وللمرء أن يتصور كيف يكون الهروب أو الجرى فى مثل هذه المواقف المصيرية .. وها هو ذا الشاعر النيجيرى عمر إبراهيم يصف مدينة «كانو» فيقول:

أباريس حوسا عليك السلام ... سلامٌ من العاشق المستهامْ

أزجى التحيات شوقًا إلى ... جميل صفاتك بالإكرام

مــــعـــالملك الغـــر لامـــعـــة تـكـاد تـفـــوق نجـــوم الـظـلام
ومن بينهــا المســجــد الفــاخــر كـجـامع دلهى جـمـال النظام
ومــــــــأذنـة طـاولـت إذ بـدت نواطح نيــويورك قــرب الإمــام
ومكتـبـهـا قـد حـكى البـرلما ن القـاهرى لحـسن التـمـام
تـرى الـطـائرات تـعـــاودهـا أتت من أوربا ومــصــر وشـام
وصـــارت كنحلٍ أتت بعـسلٍ خليـتـهـا أو كـزور الغـمـام
لهـا ارتبـاط بأم القـرى بحـبل الســمـاء لزور المقـام
« كنو » جمعت علم شرقٍ وغرب فـفـازت بسـهـمين بين السـهـام
لذلك قـيل كـمـثلك ألف قـديمًا فـأصـدق به من كـلام
ولست بناس مـصـاحـبـتى بهـا حين كنت الرجـال الكرام
أباريس حـوسا وعـاصـمـة الشْـ ـشـمـال عليك دوامًـا سـلام

وشاعرنا يظل حتى فى وصفه لمدينة « كانو » يعبق شعره بعبير الدين، فمن معالم المدينة المسجد الفاخر الذى يشبه فى جمال الاتساق جامع دلهى. والمدينة بينها وبين أم القرى مكة المكرمة حرسها الله رابطة سماوية هى الدين الإسلامى وحج البيت الحرام .. ويضرب الشاعر الوزير الجنيد على قيثارة امرئ القيس فى المعلقة وذلك عندما يصف شاعرنا مدينة « أغدس » فيقول:

ألا أبلغن عنى « لأقـدس » تحـيـة تفوح بعرف المسك أو عرف صندل
وبلغ لأهليـهـا سـلامًـا مـباركًـا يعم شـذاه من تحـيـت ومن عل
وفـيحـائهـا حـيث الظباء ترود فى خمـائل تأتى من جنوب وشـمـال
وأحـسن بهـاتيك التـلال فـإنهـا مسارح جاد الغيث فيهـا بمسبل
بلاد عـريضـات وأرض أريضـة منازه عين النـاظر المتـأمل
ومنهـا بطاح واسـعـات تزينت يتـاجـام دوم والنخـيل المكلل

ومنها جبال شامخات تزينها … طرائق من آثار حافٍ ومنعل
أعد ذكر يوم فى «تفادك» قضيته … تجول به بين الأراك المظلل
وليلٍ بواديها تهب به الصبا … على شاطئ وسط الكثيب العقنقل
ولا تنس حمَّامًا بميثائها الذى … يدفق ماء ساخنًا عند منهل
ورقص رجال فى رمالٍ عشية … صفوفًا بتصفيق النساء بأنمل
وركضك فى وعث الكثيب نجيبة … مَن النوق فى أكناف ساحة منزل
وجرى الجمال السابقات كأنها … نعامٌ نجت من قانص متنبل
وكم أذكرتنى بيت شعرٍ خيامها … بسقط اللوى بين الدخول فحومل
وأطربنى فيها غناء حمامها … قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
وعولت مغتمًا على عرصاتها … وهل عند رسمٍ دارسٍ من معوَّل
وصبرنى صحبى وقاموا جميعهم … يقولون لا تهلك أسىً وتجمَّل
فسليت عنها ثم قلت تأسيًا … فسلِّى ثيابى من ثيابك تنسل
سلام على تلك البقاع وأهلها … نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل(١)

وأقدس (AGADAS) مدينة قديمة تقع وسط الصحراء تشبه فى كثير من مناظرها الطبيعية مناظر الصحراء التى طالما وصفها الشعراء الجاهليون من أصحاب المعلقات، ولذا فإن شاعرنا فى وصفه للمدينة المذكورة يعيش مع الجاهليين فى صورهم ومعانيهم بله معجمهم اللفظى. وللشاعر وصف جميل للطائرة يقول فيه:

يا من يصعد أنفاسًا بأنفاس … شوقًا بخرطوم ذات الورد والآسِ
اصبر قليلاً فإنا سوف تحملنا … رعادةٌ فى الهوا ملمومة الراس
صعادة تتبارى فى تجولها … شهب السماء التى ترمى بأقباس

---

(١) ديوان الوزير الجنيد ص ٣٨ – ٣٩ .

طيارة صوتها عالٍ مجوَّفةٌ زمكها [1] كذوابى الشاهق الرأس
أنانةٌ فى نزول عندما بلغت إلى المحطة تمشى مشى ميّاس [2]
مملوءة بكراسى ملينة بالخيش تلبس ترويحًا لجلاّس
تنقاد طائعة فى كف صاحبها كدابةٍ ذللت فى كف سواس
فاعجب لها إنها عنقاء مغربة جاءت تذكر عباس بن فرناس [3]
بين الجناحين منها نيط مروحةٌ تدور من حولها من غير انكاس
تعطى الدخان وتنهى عن تعاملنا به عليها وهذا خلف مقياس [4]

فالشاعر يصف الطائرة وصفًا دقيقًا، فهى مدورة الرأس وذنبها كذوابى الشاهق الرأس ولها بين الجناحين مروحة تدور حولها وهى فى سرعتها فى الجو تبارى شهب السماء التى ترمى بأقباس، وبعد نزولها فى المحطة تشمى متبخترة كالأسد وهى سلسة الانقياد فى يد طيارها كدابة منقادة فى كف سواس. فهذه صور رائعة للطائرة وتصوير دقيق لها أضفى عليه الشاعر شيئًا من روحه الدعابية .. على أن الأصالة الشعرية قد ظهرت فى شعر الوصف عند شعراء غربى أفريقيا ظهور نار القرى ليلاً على علم، إذ لا تجد فيه تلك المحاكاة العمياء للمعانى القديمة وإنما وصفوا ما شاهدوا وأثار عواطفهم وصفًا دقيقًا صادقًا وموفقًا بألفاظ ملائمة ومعان تتناسب مع الصورة الموصوفة بعيداً عن تلك الألفاظ الوعرة والمعانى الجاهلية، اللهم إلا ما اقتضى المقام إيراده من معجم ومعانى الجاهليين كما فى وصف الوزير الجنيد لمدينة «أقدس» الصحراوية.

---

(١) الزمك: منبت ذنب الطائر والمقصود هنا ذنب الطائرة.
(٢) المياس: الأسد وسمى مياسا لتبختره فى المشى.
(٣) قيل إنه أول من قام بتجربة الطيران.
(٤) حركة اللغة العربية وآدابها فى نيجيريا، ص ١٨١.

شــعر الجهــاد :

وقد وجد الشعر البطولى أو شعر الجهاد نصيباً موفوراً لدى شعراء غربى أفريقيا، وخاصة فى الدول الفلانية أو مملكة سكتو التى أسسها الزعيم الروحى والدينى فى نيجيريا الشيخ المجدد عثمان بن فودى. فقد وجد الزعيم المذكور مجتمعه منغمساً فى وحل الشرك والبدع والخرافات، فعقد العزم على تطهير هذا المجتمع مما علق به من دنس الوثنية والبدع والخرافات عن طريق الدعوة إلى التمسك بالكتاب والسنة ونبذ ما سواهما، هذا فى أوساط المسلمين المنحرفين أصحاب البدع والخرافات.. أما فى أوساط الوثنيين فقد كان يدعوهم إلى الإيمان بالواحد الأحد وتوحيده بالعبودية المطلقة وترك عبادة الأوثان.. فوجد المذكور اضطهاداً لدعوته الإسلامية والإصلاحية لدى ملوك الهوسا الوثنيين، كما لقى أتباعه الذين كانوا غالباً من الفلانيين من هؤلاء الملوك أذى كثيراً، الأمر الذى جعل الجو السياسى والاجتماعى مملوءاً بالاضطرابات الشديدة فى أوائل فترة هذه المملكة الإسلامية، فكانت الحروب تدور رحاها فى أنحاء المملكة والممالك الوثنية المجاورة لها.

وقد هيأت هذه الحروب الطاحنة ميداناً فسيحاً للشعراء والنظام، فغدوا يقرضون الشعر فى هذا المجال فكثر بذلك ما يسمى بشعر الجهاد.. وكانت الأهداف الرئيسية لهذا الشعر البطولى هى تسجيل الانتصارات الكثيرة التى أحرزها المسلمون المجاهدون ضد أعدائهم الوثنيين. وتحريض الجماعة الإسلامية من أتباع الشيخ وإثارة حميتهم للقيام بالدفاع عن أنفسهم وعن عقيدتهم الدينية والتنديد بأعدائهم وتخويفهم بالترهيب والإنذار[١] .

وأول قصيدة تقابلنا فى هذا المجال هى الحائية التى كتبها الشيخ عبد الله بن فودى شقيق الشيخ المجدد يحرض فيها قومه الفلانيين ويحثهم على مناصرة أخيه

---

(١) حركة اللغة العربية وآدابها فى نيجيريا، ص ١٣٢ مع تصرف.

المجدد ومؤازرته فى جهاده لإظهار دين الله وإطفاء جذوة الشرك وكسر شوكة الكفار الوثنيين.

وقد استهل قصيدته على نمط الجاهليين فى فكرة التشاؤم والتفاؤل ولكنه شفعها بفكرته الإسلامية:

طربتُ فأشجانى الطيور الكوابح [١] ... وفرحنى منها الغيوث الروائح
وخوفنى أيضاً ذيابٌ بوارحٍ ... وأمننى منها الظباء السوانح
لقول النبى لا تزال جماعةٌ ... على الحق منا أو يجىء المقارح [٢]
ألا أبلغن عنى لحىًّ رسالةً ... تعيها رجال أو نساءٌ صوالح
لعالمهم أو طالب العلم رائمٍ ... لإظهار دين الله فيه يناصح
أقول له قم وادع للدين دعوةً ... تجبها عوامٌ أو خواصٌ جحاجح [٣]
ولا تخش فى إظهار دين محمدٍ ... بقولة قالٍ تأتسيه كنائح [٤]
ولا تخش تكذيباً وإنكار جاحدٍ ... وهزء جهولٍ ضل والحق صابح
وغيبة هماز وضغن مشاحنٍ ... يساعده من للعوائد راكح [٥]
وليس لما تبنى يد الله هادمٌ ... وليس لأمر الله إن جاء ضارح [٦]
وبيِّن لهم أن العوائد بهرجت ... وسنتنا لاحت عليها لوائح
ولهو الشباب اليوم قد بار سوقه ... وقامت على سوق الصلاح مدائح
وأهل الدنا اليوم انزوى ظل جاههم ... وسنتنا قد ظللتها الدوائح
ومنكر هذا الدين قد خف وزنه ... ومظهره ميزانه اليوم راجح
وناصره قد صار فى الناس عالياً ... ومنكره للخاص والعام دانح [٧]

---

(١) جمع كابح وهو كل ما استقبلك مما يتطير به.
(٢) المقارح: المستقبل من الأمر والمقصود هنا الساعة.
(٣) جحاجح: جمع جحجاح وهو السيد الكامل.
(٤) كنائح: جمع كنتح وهو الأحمق السفيه.
(٥) راكح: بمعنى مائل.
(٦) ضارح: بمعنى دافع.
(٧) دانح: من دنح الرجل أى ذل وطأطأ رأسه.

وإن إله العرش قد منّ منةً | علينا فمن يشكر فذلك رابحُ
وتلك بأن قد بين الدين في امرئٍ | لنا نسب نعلوا به ونطامحُ [1]
فإن نحن آويناه ننصر قوله | نفز ونحز نعماه والكل فالحُ
وإن قد أضعناه استفاد بغيرنا | مصائب قوم عند قومٍ مصالحُ
ولو نفعت قربىً فقط فيه ما ردى | أبو طالب عمُّ النبيّ وتارح [2]
وما ضر شمساً أن نفى العُمْيُ ضوءها | وما ضر حوضاً أن أبته القوامح [3]
أطائب أرضٍ تخرج النبت رائقاً | بإذن ذويها إن أفاضت دوالح [4]
ولو همت ديماً لما أنبتت ولو | بسايس نبتٍ في الأراضي البوالح [5]

وهي قصيدة طويلة رائعة احتوت على كثير من الحكم والمواعظ التي من شأنها استثارة الهمم والحماس، ولقد أعطت القصيدة ثمارها وفعلت في القوم الفلانيين وأزكت فيهم جذوة الحماس فنهضوا إلى الشيخ ينصرونه في إظهاره لدين الله فكوّن الشيخ بهم جيشاً قويّا خاض غمار المعارك مع ملوك الهوسا الوثنيين.. وقد تم له النصر المبين في جميع معاركه، وكان شاعرنا عبد الله بن فودى من طليعة من سجلوا تلك الانتصارات الإسلامية من الشعراء. ففي وقعة «كت» [6] التي تم النصر فيها للمسلمين يقول عبد الله بن فودى:

بدأت ببسم الله والشكر يتبع | على قمع كفارٍ علينا تجمعوا
ليستأصلوا الإسلام والمسلمين من | بلادهم والله في الفضل أوسع
توارق مع «غوبر» [7] وينف سفيهم | يحز بهم والله يرأى ويسمع

---

(١) نطامح: أى نفتخر. (٢) هو آزر أبو إبراهيم عليه السلام.
(٣) الإبل الممتنعة عن الشرب لداء بها مع العطش. (٤) السحاب الكثير.
(٥) البوالح: جمع البالح وهي الأرض التي لا تنبت شيئاً.
(٦) حوض في مدينة «غردم».
(٧) غوبر: مدينة. وينيف: اسم سلطانها ويطلق اسم غوبر أيضاً على القبيلة التي تسكنها.

إلى أن قال :

وليس معى إلا قليلٌ أطاعنى	على السير بعد الأين والجوع يلذع
ولما رأينا الفجر ضاء عموده	نزلنا فصلينا إلى أن تجمعوا
فسرنا إلى «غردم» وقد تم جمعنا	قبيل زوال اليوم والجمع يوزع [1]
فذدنا جموع الكفر عن حوضه وقد	رأوا جمعهم مثلَى جماعتنا فعوا
فظنوا محل الغيل ينصر جمعنا	وأن الربى من ناصريهم ستنفع
ففروا إليها ثم صفوا وأنطقوا	طبولهم والجمع يدنوا ويتبع
إلى أن تراءينا وزاد اقترابنا	رموا فرميناهم فولوا وأقشعوا
فلم يك إلا أن رأيت جهامهم	قد انكشفت عن شمس الإسلام تلمح
بنصر الذى نصر النبى على العدا	ببدر يجمعٍ ململائك يجمع
وكم من كمىٍ جدلته سهامنا	وأسيافنا واراه طير وأضبع
وكم ذى جلالٍ صرعته أكفنا	فجزت فئوسٌ رأسَه يتقطع
طردناهم وسط النهار فلم يكن	لهم غير غيل فى دجى الليل مفزع
لكل الجهات قد تفرق جمعهم	بداداً ليوم الجمع لا يتجمع

وختم القصيدة بقوله :

فيا أمة الإسلام جدوا وجاهدوا	ولا تهنوا فالصبر للنصر مرجع
فقتلاكم فى جنة الخلد دائماً	وراجعكم بالعز والمال يرجع
فليس لما تبنى يد الله هادمٌ	وليس لأمر الله إن جاء مدفع

فشاعرنا قد استغنى فى قصيدته عن المقدمة التقليدية، ليعبر عن فكرته الإسلامية وحقائق عقيدته باسلوب يراه مناسباً للفكرة، حيث يبرز التأثير الدينى عليه . . فاستمد المقدمة من المعانى والأفكار الإسلامية كالبدء بالبسملة تتبعها الحمدلة أو الشكر لله المفضل عليهم بالنصر . . وبعد ذلك يسرد لنا أحداث الحرب

---

(١) غردم : موضع.

وكيف مكنهم الله من أعدائهم عندما التقى الجمعان واكتحلت الأحداق بالأحداق فبددوهم وقتلوهم وتركوهم نهباً للطيور والضباع، وقد أعملوا فيهم السيوف والسهام والفؤوس ثم تفرقت فلولهم أيدى سبأ ولن يقدر لهم التجمع إلى يوم الجمع لا ريب فيه.

وقد رجع الشاعر النصر الذى أحرزوه إلى الله الذى نصر نبيه محمداً ببدر. وأخيراً نجد أن الشاعر قد استطاع أن يؤدى دوره فى ميدان الجهاد فى استنهاض الهمم وإلهاب مشاعر الحماس والاندفاع فى نفوس المجاهدين مصوراً مشاعر المجاهدين وأحاسيسهم بعد أن نذروا أنفسهم جنوداً من مواكب الإسلام. وعبر عن روح الجهاد التى يجب أن يتحلى بها المسلمون بعد أن عمر نفوسهم نور الإيمان وبددوا بوهج العقيدة ظلمات الصدور، وذلك فى الأبيات الثلاثة الأخيرة من القصيدة..

وفى وقعة «كنو» [1] يقول محمد بللو بن عثمان بن فودى:

سائلوا عنا وعن أعدائنا	يوم دار الحرب في «كنّو» الحفر
قد تركناهم بها مثل الهبا	أو كأحطام الهشيم المحتظر
ولكم كر به فرساننا	فى صناديد «كياوا» [2] المنكسر
إذ رجعنا لهم وقت الضحى	بجنودٍ كجراد منتشر
وكأن الخيل فى أرجائها	حداً تخطف أشلاء البقر
فلقيناهم وأوغلنا بهم	برماحٍ وسهامٍ كالمطر
واشرأبوا فرمونا مثلها	فأقمنا هكذا حتى الظهر
فدعونا : يا نزال للوغى	فدخلنا حصنهم وقت العصر
فسقيناهم منايا فَرُوُّ	سُهُمْ أمثال جذع منقعر
ثم رحنا غانمين كأننا	قد رجعنا من جوائى للحفر
فاحمدوا الله على إحسانه	لأولى الإسلام يا أهل العبر
فهو مولانا وولى أمرنا	حبّذا المولى ونعم المنتصر [3]

---

(١) موضع . (٢) موضع . (٣) إنفاق الميسور فى تاريخ التكرور، ص ١٤٧ .

ومحمد بللوا يستغنى عن المقدمة التقليدية للقصيدة فى هذه المقطوعة ويعتمد أسلوباً آخر للاستهلاك قائماً على المحاورة وإثارة التساؤل وهو قوله:

سـائلوا عنـا وعن أعدائنـا   يوم دار الحرب فى كنو الحفر

وفى هذا الأسلوب حث وتنبيه وإسراع فى انتشار أثر القصيدة..

ونجد فى القصيدة ذكراً لأدوات الحرب كالرماح والسهام، فقد وصف كثرة الرماح والسهام واقتحامها الأعداء ومداهمتها لهم كمداهمة المطر من ينزل عليه.

ويبدو تأثر الشاعر بالقرآن الكريم فى معجمه اللفظى وصوره الفنية من أمثال استعمالاته تعابير قرآنية وردت فى سورة القمر كقوله: «كأحطام الهشيم المحتظر» وقوله: «بجنود كجراد منتشر» وقوله: «فرؤوسهم أمثال جذع منقعر» [اقتباس من سورة القمر: ٧ ، ٢٠ ، ٣١].

كما تبدو أصداء الدين واضحة فى البيتين الأخيرين حيث يأمر الشاعر أهل الإسلام أن يحمدوا الله على إحسانه بما حقق لهم من نصر على أعداء الله، فهو تعالى مولى المجاهدين وناصرهم وهو نعم المولى ونعم النصير.

ولم يكن الشيخ عثمان بن فودى فى جهاده باغياً أو خارجاً عن تعاليم الإسلام فى الجهاد.. فها هو ذا ابنه محمد البخارى فى قصيدته الحماسية التى بدأها بمقدمة غزلية وجهها إلى «ابرا» رأس الوثنيين وفيها نتبين منهج الشيخ فى جهاده.

فيقول محمد البخارى بعد مقدمته الغزلية [1]:

أيا راكبـاً بلغن «أبر» عنى النـ   ـصيحة والنصح خير المقالِ

فإن كنت ترجو بلوغ الأمانى   بنصر الغوابر أهل الضلال

فلن يجعل الله للكافرين   على المؤمنين سبيلاً بحالِ

فمرهم إذا شئت أن يسلموا   بصدقٍ وإلا بإعطاء مال

---

(١) الميل على حب النساء، ص ٧.

وإلا فـإنا سناتيكم نزجُّ الكتائب مثل الجبال
تذود الوحوش عن الخرق فيها أسود الوغى فوق جرد طوال
مقاديم فى الروع لا ينكصون إذا الخيل جالت بهم فى العوال
بأيمانهم مرهفات طوالٌ وبيضٌ رقاق وزرق نصال
ويهديهم خير سعدٍ وعال حياء وصبراً وبذل النوال
وأفضل رأياً إذا ناب أمرٌ وأشجعهم حين يدعى النزال

.. وهكذا نفهم من القصيدة منهج الشيخ عثمان بن فودى في جهاده الوثنيين، فهو يدعوهم إلى الإسلام أولاً فإن أبوا فدفع الجزية فإن أبوا فقتال.

وهو فى هذا المنهج مقتد بسلفه الصالح في الفتوحات الإسلامية..

وفي القصيدة أصداء للدين تظهر في تأثر الشاعر بقوله تعالى: ﴿ **قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ** ﴾ [التوبة: ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً** ﴾ [النساء: ١٤١].

هذا، وقد نهج شعراء العربية بغربى أفريقيا فى هذا الفن منهج القدامى فإذا وصفوا الجيش وصفوه بالكثرة المفرطة كقول محمد بللو:

بجندٍ يملأ الأركان طرّا ويكسو السهل والحزن النشابا

وقوله:

إذ زحفنا لهم وقت الضحى بجنود كجراد منتشر

وفى ذلك يقول محمد البخارى :

لجبٍ رحيب السرب من صنهاجةٍ يتوقدون توقد النيران

وكذا قوله :

ساروا إلينا واثقين بطولهم بعرمرم كالليل ذى الأركان

وإذا وصفوا شجاعة الجيش وبسالته شبهوه بالأسود، يقول محمد البخارى :

بأنا قد أتينا أهل غوبر بجمع مثل أساد التحام
بأيديهم سيوف راسباتٌ مترات الجماجم والبنام

ويقول فى ذلك أيضاً :

تذود الوحوش عن الخرق فيها أسود الوغى فوق جرد طوال

ويقول فى الموضوع نفسه عبد الله الوزير :

يقودهم «بل» فى خيل وفى رجلٍ بين الليوث كليثٍ ثائر ضارى

ومن مظاهر محاكاتهم للقدامى فى هذا الفن أيضاً طريقة وصفهم للخيل.. فها هو ذا محمد البخارى يشبه الخيول فى سرعتها بالحمام فيقول :

وتحتهم خيولٌ ضامراتٌ طوالٌ جافلات كالحمام

ويقول أيضاً عبد الله الوزير :

على كل جرداء وأجرد شيظم تراه كصفراء الجراد إذا استوى
قد اعتاد غارات الصباح تخاله إذا ما جرى فوق الربا طار فى الهوا

ويذكرنى هذا ببيت سلمة بن الخرشب :

فلو أنها تجرى على الأرض أدركت ولكنها تهفو بتمثال طائر

ومن الظريف أنهم يشبهون الخيول فى حروبهم بالحدأ، فيقول محمد بللو :

وكأن الخيل فى أرجائها حدأ تخطف أشلا البقر

وتابعوا القدامى أيضاً في الحديث عن الضرب والطعن وآلات الحرب، وإن لم يتانقوا فى ذلك تانقهم، فها هو ذا محمد بللو يقول:

تصيح الردينيات فى حجباتهم ... وتسقيهم كأس المنايا المخمّرا

ويقول فى ذلك أيضاً:

تداعى أولو الإسلام حين تذامروا ... بكل حسامٍ يفرق الهام مشهرا
وكل ردينى وأسمر قعضب ... علىٍ كل جهدٍ من نجائب بربرا
ورجلهم يحمى سهاماً كأنها ... ندىً صاب فى جو النهار وأمطرا

ويقول أيضاً عبد الله الوزير:

نصراً لنا برماحنا وسهامنا ... وسيوفنا ببطونهم والرأس
أولادهم ونساؤهم مسبيةٌ ... ورجالهم مقتولة بالفاس

ويقول محمد البخارى أيضاً :

بأيمانهم مرهفات طوال ... وبيض رقاق وزرق نصال

كما تابعوا القدامى فِى وصفهم مشاهد الهزيمة من قتلى وجرحى وأسرى واستيلاء على الغنائم، فمثلاً يقول عبد الله الوزير:

وكم من كمىً جدلته سهامنا ... وأسيافنا واراه طير وأضبع
وكم ذى جلال صرعته أكفنا ... فجزت فئوس رأسه يتقطع

ويقول أيضاً :

لكل الجهات قد تفرق جمعهم ... بداداً ليوم الجمع لا يتجمع
فخلوا لنا أموالهم ونساءهم ... على رغمهم والله يعطى ويمنع

ويقول فى أسر قائد الوثنيين :

وأسر طاغوتهم قد زاد ذلهم ... مقيداً بينهم فى ملبس العار

ويقول أيضاً :

فلما رأونا لا نمل جهادنا ... لقتلٍ وأسرٍ جلهم خاف فارعوى
ففروا إلى البلدان شتى وجمعهم ... كجمع أناس كان فى سبأ بوى

ويقول أيضاً :

فـفـروا عن جـمـاعـتـهـم وجـازوا ... مـسـيـرة خـمـسـة فى نصف يوم

وفى ذلك يقول محمد بللو :

فـأين سـراتكم سـيـدى بن برهى ... ونجل كـجـيـر مـشـئـوم قـدار

(وأى صـدى) تركناه صـريعـاً ... وفى لحـيـيـه والقـحف ازورار

ضـربنا قـرن كـبـشكم فـاضحى ... أجم كـانه فـيكم حـمـار

فــحــزنا يا توارك أهل «أزبن ... فــفــروا كى يخلصكم فــرار

فــســيــروا أربعين ونصف عـام ... فــفــروا كى يخلصكم فــرار

وقد ارتبطت صورة القتل عندهم بالطير والضباع وهى مرتبطة فى ذلك بالشعر القديم فمثلاً يقول محمد البخارى:

قــوم هم تركــوا أباك مــجــزراً ... يوم التـقـوا للنسـر والضـبـعـان

و من ذلك أيضاً قول عبد الله الوزير:

وكم من كـمىٍّ جـدلتـه سـهـامنا ... وأسـيـافنا واراه طيـر وأضـبع

هذا، وقد رافق الشعر أغلب معارك الإسلام فى غربى أفريقيا، فكان ينبض بالقوة والتمكن ليثير فى نفوس المسلمين دوافع الاقتحام والتحدى لصنع المستقبل المنشود الذى يبرم الله للأمة المسلمة فيه أمر رشد يعز فيه أهل طاعته ويذل فيه أهل معصيته.. ولما كان الشعر سلاحاً إعلامياً معبراً، فإنه كان قادراً على التعبير عن قيمة الانتصار من خلال ترسيخه قيم الثبات على المبدأ وإثارة روح الإقدام واستطابة الموت، التزاماً بمبدأ الجهاد والشهادة فى سبيل العقيدة ولفت أنظار المجاهدين إلى أن قتلاهم شهداء ومصيرهم الجنة حيث يلقون سيد الشهداء وليكن الموت فى سبيل الله إذن أسمى أمانيهم ومنتهى غايتهم..

ففى معركة «كت» التى خرج منها الإسلام منتصراً ومظفراً، وقف عبد الله الوزير يتغنى بالنصر الذى أحرزه المسلمون وفيها يقول:

فـيـا أمـة الإسـلام جـدوا وجـاهدوا ... ولا تهنوا فـالصـبـر للنصـر مـرجع

فـقـتـلاكـم فى جنة الخلد دائمـاً ... وراجــعـكم بـالعــز والمـال يرجع

ويقول فى قصيدة أخرى :

وإن سر «غوبر» و «التوارق» ذاك والـ ـقتال سجالٌ ليس مرجعنا سوا
فمن قتلاهم فى جهنم دائماً ومن فى جنان الخلد ليسوا على استوا

ومجمل القول إن الطابع المميز لشعر الجهاد فى غربى أفريقيا يتمثل فيما يأتى :

١ - الروح الجماعية :

حيث يستعمل الشعراء ضمير الجمع «نحن» المعبر عن روح الجماعة، وهو ما وجد فيه الشعراء القوة والصلابة، كما وجدوا فى صيغة الضمير «نا» القدرة على الاندفاع بشكل أوسع، فالأفعال «رأينا» و «ذدنا» و «نجاهد» وغيرها من الأفعال تشكل المحور الذى استند إليه الشعراء فى التعبير عن الروح الكبيرة التى تجمعهم والإحساس الأشمل الذى يتحرك فى أعماقهم ويثير فيهم الاندفاع نحو الهدف المنشود.

٢ - الطابع التاريخى الجغرافى :

ويتصل بهذا الجانب الأشعار التى ذكر فيها أسماء الأماكن والحصون والحياض والأنهار التى دارت رحى الحرب حولها أو فيها.. وتبقى القيمة التاريخية الجغرافية لهذا اللون من الشعر سمة مميزة له تحكى قصة الإيمان ومسيرة نضال الإنسان المسلم الذى أدرك كنه حياته واستشعر قيمة ذاته من خلال هذه المسيرة، وكانت النماذج الشعرية التى نظموها وثائق تاريخية جغرافية مهمة..

٣ - استلهام الصور القديمة فى الحرب :

لم يخرج شعر الجهاد عند شعراء غربى أفريقيا فى صوره الشعرية للحرب عما كان عليه فى الشعر القديم.. فقد ظلت الصور القديمة تستحوذ على الشعراء وتجتذبهم، وظلت المنبع الوحيد الذى يغترفون منه صورهم الفنية، فإذا وصفوا البطل وصفوه بالأسد كما رأينا..

وصورة القتل مرتبطة عندهم بالطير والضباع، وهى صورة قديمة قدم الشعر العربى، وهم ينقلون هذه الصور نقلاً دون أن يضيفوا إليها ظلالاً جديدة بحيث تصبح صورهم جديدة أو كالجديدة.

على أن شعراء الجهاد لم يكونوا يحترفون الشعر، بل كانوا ممن أنطقتهم الأحداث ولم يكن لديهم الإلمام الواسع بالتراث الشعرى لعصور الشعر العربى كلها، ولا ذلك الرصيد الضخم من الألفاظ والعبارات والصور التى كان لا بد أن يلم بها الشاعر المحترف.. أضف إلى ذلك حالة الشاعر النفسية وطبيعة التجربة التى يعبر عنها، فضلاً عن الظروف والملابسات التى كانت تحيط بنظم القصيدة والتى لم تترك للشاعر فرصة الإسهاب فى عرض أفكاره والخوض في جزئيات الأحداث ووقائعها.. فالشاعر الأفريقى كان فارس حلبة يتحمل عبء الجهاد فهو مجاهد وشاعر معاً..

على أنه قد توجهت غايات شعر الجهاد نحو تعزيز قيم العقيدة المتمثلة في الدعوة إلى الثبات على المبدأ والحض على التضحية بالنفس والنفيس مقابل الجنة.. فارتبط موضوع الحرب بالدفاع عن العقيدة وترسيخ مبادئها، وقد شكلت الخيل والسلاح عدة الحرب كما رأينا.

الشكوى والحنين :

تناول شعراء غربى أفريقيا شعر الحنين ضمن أغراضهم الشعرية غير أن تناولهم لهذا الغرض يعد قليلاً بالنسبة إلى الأغراض الأخرى، وقد تبينت أصالتهم تبيّنا واضحاً فى هذا الغرض فها هو ذا الشاعر السنغالى المصطفى آن يعبر عن حبه لوطنه وحنينه إليه لما نأى عنه إلى ساحل العاج فيقول [1] :

هواى فى اليوم أن أحظى بإدلاجى ... للأهل مبتعداً عن شاطىء العاج

فإننى صرت مشتاقاً إلى وطنى ... رمانى الشوق فى ضيق وإحراج

قومى بعيدون عن سمعى وعن بصرى ... أنا الغريب بقلب جد هياج

(١) الأدب العربى السنغالى. جـ١ ، ص ٢٠٧ .

كأنني كنت طفلاً تاه مبتعداً — عن أهله ضمن فصل ليله داج
إني أجول ولا أرضاً سلوت بها — وسرت تيهاً كولاج وخراج
أرض بها الزهر حول الماء مبتسماً — فالموج من مائها يعلو كأبراج
كأنما الورد يستجدي معانقة — للند فوق رقيق النسج ديباج

ثم يذكر خصال قومه فيقول:

من ثم صحبي الألى طابوا مؤانسة — للعلم كم فتشوا عن أي إنتاج
كل يحاول تثقيفا ويعشقه — كم بادروا نحو عرفان بأفواج
هم فتية لا يني قلبي يحبذهم — وشوقهم طن في لحمي وأوداج
إني لأشتاق من قومي شمائلهم — فالكل من قلبه يحنو لمحتاج
أيضاً أسر بأخلاق لجيرتهم — أخص منهم فتاةً طرفها ساج
عهدي بها في مصيف كنت زائرها — بجنب ماءٍ بعيد الغور ثجاج
إني تعبت وأحزاني محركة — قلبي الكئيب وهل أحظى بإفراج
لكنني محسن ظني وفي ثقتي — بالله بارئنا من ماء أمشاج
ما بي قنوط ولا يأس لرحمته — لأنه جل يهدي خير منهاج
إن الرجوع إلى أهلي وفي وطني — هو المنى في فؤادي الخائف الراجي

فالشاعر حن إلى بلده فذكره ووصف محاسنه ومحاسن قومه كما ذكر محبوبته وحزنه على فراقها ثم تضرع أخيراً إلى الله ليجمع شمله من جديد وينعم بالعودة إلى بلده وأهله وذويه وتلك غاية المنى عنده. ونرى صدى الدين في شعره في الأبيات الثلاثة الأخيرة واضحة كل الوضوح حيث ينفي يأسه وقنوطه من روح الله ورحمته.. ويضرب على أوتار الحنين الشاعر النيجيري الوزير الجنيد محنا إلى بلده «يولا» فيقول:

لي في المعاهد صبوة لكنها — ليست تعادل صبوتي في يولا
وسقى الحيا تلك الربوع وهادها — وتلاعها معمورها وطلولا
وطن تحن إليه نفسي دائماً — ما أن أرى تختار منه بديلا

أحسن به من موطن تلقى به	الأحباب فى ظل يكون ظليلا
يكفيك إن رمت القصور تلالها	حسناً وأشبه بالقصور تلولا
ومن الظباء كفاك فيها شاؤها	ترعى ترى أخلافهن ثقيلا
ومن المزامر صوت رنة طيرها	متغردات يستلبن عقولا
ومن الملوك شيوخها فقراؤها	التجار فى زى يكون جميلا
ومن المواعظ إن أردت قبورها	لا وعظ أعظم منه أبغ سبيلا
ومن النميمة قد كفى أخبارها السْـ	ـسُوقى لكن إن أردت فضولا
ومن الكلام بحوس من فلانها	يكفيك « جون » مورث « جاغ » مدلا
ومن القباب كفى بها أشجارها	أحسن بها من أن تكون مقيلا
لا سيما فى الصيف لما قاربت	شمس النهار على الجبال تسيلا
أمسك عنانك لست تبلغ فضلها	وخواصها ما قلت كان قليلا
وكفى بها شرفاً اعتنا قدمائنا	السادات قبل بها كفاك دليلا
لى فى المعاهد صبوة لكنها	ليست تعشر صبوتى فى يولا
يا رب فاستر أهلها الأحياء واغـ	ـفر أهلها الأموات خيرك نيلا

لا شك أن الشاعر كان محباً لبلده حباً جما، ويبدو أن هذا البلد يومئذ كان بدائياً لم تدخله أسباب المدنية أو التطور العمرانى الذى يجعله جميلاً ومحببا إلى كل الناس، ومن هنا نجد الشاعر يحاول أن يوجد بدائل لأسباب العمران التى تشد النفوس إلى البلدان، فجوه جميل ولطيف وفيه ظلال وارفة أما قصوره فهى التلال وما أشبهها بالقصور، وظباؤه هى الشياة والمزامير الموسيقية هى رنة تغريد الطيور وملوكه هم الشيوخ أهل العلم.

وإن رمت المواعظ فيه، فحسبك قبوره موعظة وإن كنت صاحب فضول فستجد بغيتك فى أخبار السوقة من أهله وهكذا.

وأخيراً يؤكد الشاعر قصور همته عن إدراك شأوه وحصر محاسنه وأخيراً يدعو بالستر لمن يقطنه من الأحياء وبالغفران لمن ماتوا فيه.. وقد أكثر شعراء غربى أفريقيا من الشكوى إلى الله مفرج الهم ومنفس الكرب لسوء أحوال

عصرهم وخاصة بعد دخول المستعمرين واستقرارهم فى البلاد واستئثارهم بكل شىء ونجاحهم فى تفريق شمل المسلمين.. مما أدى إلى ضعفهم وضعف وازع الدين فى النفوس، حيث تزلف بعض المتحذلقين إلى المستعمر البغيض يتملقه ويتذلل له ويتآمر معه ضد بنى قومه. وطبيعى جداً فى مثل هذه الحياة الاجتماعية المزرية التى فشى فيها الفسق والفساد، ولم يحفظ فيها للدين حرمة ولا ترك للعرض حمى أن يهرع العلماء إلى الله ليكشف عنهم وعن المسلمين جميعاً ما هم فيه من ذل وغمة، وقد تقبل الله دعوتهم فتحررت البلاد الإسلامية كلها فى أفريقيا وآسيا من قيود المستعمرين وإن تركوا مخلفات لهم ممثلة فى عملائهم من أبناء البلاد المسلمة ينخرون كالديدان فى عظام الأمة والله المستعان.. وها هو ذا الوزير الجنيد يشكو من تلك الحالة الاجتماعية السيئة بعد دخول المستعمرين فيقول:

ظعن الذين عهدتَ فى ذا النادى ... ماذا وقوفك فى الطول تنادى

وعلام تبكى من بكاء حمامة ... فى أيكةٍ تشدو على الترداد

صارت مراتع للوحوش بعيد أن ... كانت مقاصد حاضرٍ أو باد

أقوت فلست ترى بها أحداً سوى ... الحرباء لائذة على الأعواد

قامت تخاطبنى فعز كلامها ... ولكم سكوتٍ معلنٍ بمراد

وتدير عينيها تشير بذاك دو ... ر الدهر غير ما ترى فى النادى

وتلونت ففهمتُ منه تلون الـ ... أحوال في الدنيا فعز رقادى

ناديته يا أيها ذا النادى ... فأجابنى يا أيها ذا النادى

لما سكت دنت إلى حمامةٌ ... مغبرة تبدو كلون رماد

فسألتها أين الذين عهدتهم ... قالت لقد بلغوا على الميعاد

قلت اخبرينى من تخلف بعدهم ... قالت تخلف دولة الأكراد

ما لى أرى دول الكرام وضيعة ... قالت علتها دولة الأوغاد

فسألت ما خلق الذين تخلفوا ... قالت ذوو فحشٍ ذوو أحقاد

لا تكذبينى يا حمامة اكشفى ... قالت ذوو حسد ذوو إفساد

والقصيدة طويلة وجميلة تعبق بمعاناة رجل الدين والمواطن الغيور على دينه ووطنه. ولشاعرنا شكاوى متعددة فى هذا الصدد نكتفى بما ذكرنا.

وقد ضرب على أوتار شكوى الحالة الاجتماعية السيئة وفساد الأخلاق وانتشار الفتن، الشاعر السنغالى الحاج المنصور سه فيقول:

أشكو إلى الله ما بالقلب من حزن ... وما أقاسى به من مضجعٍ خشن
أنفقت كنز مداراتى لنيل سلا ... مة ولم يغن شيئاً فى بنى زمنى
لولا المروءة أخت الدين ما انبسطت ... روحى إلى أحد خوفاً من الفتن
ولا أخالط من يردى بصحبته ... دينى ودنياى من غش ومن دخن
ما زلت آمل ذا ود يوافقنى ... به أرمق ودى غير مضطغن
والأمر بالعكس إنى كنت فى سنةٍ ... وأيقظتنى صروف الدهر من وسن
رمت السلامة فانسدت مسالكها ... إن السلامة أمر غير ممتهن

ويقول فى مقطوعة أخرى:

زمان أناس في مكاثرة الثرىٰ ... تمالوا وصدق القول فيه غرور
وتنكيث عهد والأمانة دابهم ... وتأويل أقوال تشق صدور
زمان إذا مس الكريم خصاصة ... رموه وهو عند الإله خطير

ويتصل بالشكوى من فساد الحياة الاجتماعية وترديها والسخرية من المستعمرين مقطوعة الشاعر النيجيرى وزير سوكتو عبد القادر بن محمد التى يصف فيها الحياة فى عصره ويسخر من المستعمر الدخيل الذى أصبحت السلطلة الحقيقية في يده ويحكم بالاستبداد تحت ستار الحكم غير المباشر وذلك بواسطة الأمراء الذين استغلهم وصيرهم أداة لقمعه وإرهابه، فيقول:

عسا الليل حتى اصطاد ببر وثعلب ... وناوشت الآساد ضب وأرنب
تفر أفاعى الأرض من خوف ضفدع ... وتزرع هند فى الصباح وزينب
وأبصرت أقواماً مع الليل أنزلوا ... أهاليهم فى الدشت والظبى تذهب
فولت فراراً ثم فاءت وأقبلت ... فيا ليت شعرى هل رأى الظبى أسرب

وأمـا ملوك الأرض فـيـمـا لديهم   فـمـا مـسـهم ضـر ومـا خـاب طلب
ولكنهـم فى نعـمـة أى نعـمـة   بلادهـم فـيـهـا أمـانٌ وزغـرب

فشاعرنا يحاول أن يصف انقلاب الأمور رأساً على عقب بدخول المستعمرين وفساد أخلاق المواطنين الذين كانوا يتزلفونهم ويستغلون فى إذلال شعبهم بسبب ما ينالون من المستعمر من سلطة خاوية من أدنى معانى السلطة. وبذلك أصبح الشريف وضيعاً والوضيع شريفا وانقلبت الموازين بسبب سياسة المستعمر الرعناء.

وقد أحسن الشاعر في وصف الحالة حيث جعل الببر والثعلب حيوانين مفترسين وتلك ليست شيمتهما، كما جعل الضب والأرنب يناوشان الآساد وليست مناوشة الأسود ديدنهما، كما جعل الأفاعى تفر من الضفادع وجعل النساء اللاتى يخدمن أصبحن يخرجن لفلاح الأرض والزراعة، وهكذا استطاع أن يعطى صورة صادقة لمجتمعه بعد دخول المستعمر الدخيل البغيض.

ونكتفى بهذا القدر من شعر الشكوى والحنين، على أن أصداء الدين التى ظلت تلازم الشعر العربى فى غربى أفريقيا بجميع أغراضه لم تتخلف هنا أيضاً كما رأينا.

المناسبات :

لم يغفل الشعر العربى فى غربى أفريقيا شعر المناسبات، فكثيراً ما استجابت قرائح الشعراء لمناسبة من المناسبات السعيدة أو الحزينة.

على أن جانباً كبيراً من شعر المناسبات غير متشح بوشاح الشعر، وكثيراً ما يتسم بطابع المنظومات التاريخية التى تعنى بتسجيل الوقائع التاريخية أكثر من عنايتها بالصور الفنية. ومما قيل فى التهنئة منظومة الشيخ أبى بكر غمى يهنىء الحاج محمد السنوسى شروما (Ciroma) يوم كان ولى العهد بعد رجوعه من الحج فى سنة ١٩٥٣ م حيث يقول:

غادرتنا نبكى فراقك ما لنا ... حتى تعود تبسمٌ وسرورُ
يا ضعفنا يوم الوداع ببابكم ... والناس صرعى كلهم مأسور
حتى عزمت فمنهم متلفتٌ ... ومشيع ومعول وصبورُ

وفيها يقول إن الشرق كان يضيء عندما يمم نحوه السنوسى وترك الغرب يشرق من الشيحى إذ أصبح مهجوراً.. وقد جعل الشاعر بعض الظواهر الكونية تشاركه فى الفرح والمرح بهذا القائد المسلم فجعل الأفق والطير مسرورة لمجاورته لها وهو يطير فى سفينة الهواء إلى الأراضى المقدسة وأن أهل مكة قد فرحوا لمقدمه وأرخوا به ولنستمع الآن إلى قيثارته:

الشرق يشرق ما قصدت تجاهه ... والغرب يشرق إذ هو المهجور
والأفق سر بما مررت وطيره ... والأرض تمسى للهواء تغير
حتى نزلت أمام ربك شاكراً ... فيما حباك وخصك المشكور
لبيت دعوته وأنت مهللٌ ... متضرع متجرد محسور
أديت واجبه بأحسن حالة ... أبشر بدينك إنه مأجور
سكان مكة أرخوا بقدومكم ... إذ فاز منك شريفهم وفقير
وقصدت خير العالمين بطيبة ... مع صاحبيه وعمك التنوير
ردوا السلام عليك حين بدأتهم ... ودعوا لكم والحافظون ظهير (١)

ومما هو من التهانى بسبب قصيدة الشاعر السنغالى أحمد عيان سه بمناسبة قدوم الجنرال الفرنسى دغول (De Gaulle) إلى السنغال بدأ القصيدة بمقدمة فى وصف بعض المناظر الطبيعية من نهر وبحر وزهور يقول فيها:

لقد أتىّ عبقرىّ الدهر سنغالاً ... يا نهر فاجر إلى الصحراء أميالا
ولتسقها من معين الماء صافيةً ... عذباً زلالاً ولا تسمح به آلا

---

(١) حركة اللغة العربية وآدابها فى نيجيريا، ص ١٩٨ - ١٩٩ .

إلى أن يقول :

هذا دغـول أتاكم فـاضـربوا فـرحـاً ... له الدفـوف وخلوا القـيل والقـالا
يعـد فى كل حـالٍ مـا يناسـبـه ... فـافـرح بمقـدمـه واشـرح له حـالا
يعين كل امـرئٍ فـيـمـا يحـاوله ... يعطيـه من أمـر الاسـتـقـلال ما قـالا
قل مـرحـباً قـد أتى أم القرى أصـلاً ... وقـم له حين زار القـصـر إجـلالا
أهلا بطائرة فى الجـو تحـمل من ... قـد فك عن شـعـبنا قـيـداً وأغـلالاً
رئيسـهـم لكثيـر القـول مـجـتنب ... تراه يومـاً لمـا قـد قـال فـعـالا
حب المواطن من إيمان صـاحـبـهـا ... لذاك أحـبـبت أوطانى هنا حـالا
ولتـعـمـروا بلداً تسـتـوطنون به ... ولتـمـلؤوه بسـاتينا وأمـوالا
بذاك فابغوا رضى الرحمان واتبعوا ... مـراده فى بقـاء الناس أجـيـالا
لا تفـشـلوا بنزاعٍ سـوف يهلككم ... مـسـتـمـسـكين بما المولى لكم قـالا
إن دام هذا سـعـدتم فى تواصلكم ... أو لا شـقـيـتم وكنتم بعـد ضـلالا
نرجـو من الله أن يرعى حكومـتنا ... كـالمسـتـقلة أقـوالاً وأفـعـالا
ويحـفـظ الوزراء القـائـمين بهـا ... و يحفظ الشعب والأهلين والآلا (١)

وواضح أن شاعرنا لم يكن يمدح هذا الزعيم الاستعمارى لاستعمار قومه للسنغال إذ لو فعل ذلك لكان من الحمقى، إذ أن السنغال لم تجن من وراء المستعمرين إلا الويلات . . ولكنه يمدح « دغول » لاستجابته لاستقلال السنغال وكان شاعرنا يهوى منه استقلال بقية مستعمرات فرنسا فى القارة الأفريقية، وقد أكد هذه الحقيقة فى قوله :

يعين كل امـرئٍ فـيـمـا يحـاوله ... يعطيـه من أمـر الاسـتـقـلال مـا قـالا

وقوله :

أهلاً بطائرة فى الجـو تحـمل من ... قـد فك عن شـعـبنا قـيـداً وأغـلالا

---

(١) الأدب العربى السنغالى، جـ ١ ، ص ١١٣ – ١١٤ .

على أن شاعرنا قد ظلت الأصداء الدينية تلازم شعره حتى فى هذه التهنئة أو المدحة التى يهديها إلى إنسان لا يدين بدين الإسلام. فهو يؤكد أن ما قام به لهذا الكافر إنما هو واجب وطنى وحب الوطن من الإيمان. ثم يلتمس من بنى قومه أن يعمروا الأرض بالزراعة والكسب المشروع وليلتمسوا رضى الله بتعمير الأرض لأن ذلك هو المقصود وراء استخلاف الله لهم فى الأرض، كما طالبهم نبذ الخلافات والنزاع اللذين من شأنهما أن يهلكاهم ويفشلاهم فتذهب ريحهم. وكل هذه النصائح مطالب أساسية فى ديننا الإسلامى.

وأخيراً يرجو الشاعر من المولى العلى القدير أن يجعل بلده مستقلاً بكل ما فى كلمة الاستقلال من معنى قولاً وعملاً ولا يكون استقلالا البلاد مجرد حبر على ورق.. ومن قبيل شعر المناسبات تقريظاتهم الأدبية، فها هو الأستاذ عبد الله ابن يوسف النيجيرى يقرظ ديوان الشاعر عمر إبراهيم [1] بهذه الأبيات بعد أن قرظه بمنثور الكلام فيقول:

أحديقة الأزهار للقاضى عمر	ديوانه مجموعه باهى الدرر
أم هذه شمس الضحى قد أشرقت	أم أنجم الجوزا سناها قد بهر
أم ذى صحائف كونت من عسجد	فتناسبت فيها المعانى والصور
أم ذاك ديوان لأوحد دهره	شمس العلا بحر العلوم إذا فخر
هو أوحد الحكام تاج رؤوسهم	مغنى اللبيب إذا بدا وإذا حضر
جادت قريحته بنظم فرائد	قد كان يذخر كنزها فيما ذخر
سرحت طرفى فى محاسن روضه الـ	ـباهى فذكرنى بخاتمة الزمر
وحديقة الأدب البهى رواؤها	قد أينعت منها الأزاهر والثمر
لله ما أوفى محيط عبابه	جمع المطول والوجيز المختصر
قل للألى زعموا كفاية غيره	هيهات هل تجدى النجوم مع القمر
وبروجه فى العلم شامخة البنا	بشهير بلدان وأعلام غرر

---

(١) سمى الشاعر ديوانه بحديقة الأهار.

أتظن أن الوصف جاوز حده ... عند العيان يصغر الخبر الخبر
فاضرب له ما قيل: كل الصيد في ... جوف الفرا مثلاً تواتر واشتهر
أخباره في الخافقين حميدة ... وإذا زكت شيم الفتى حسن الأثر
ومضاؤه في الحكم والإقدام قد ... سارت به الركبان في بحر وبر
وسعوده سعدت بها أيامنا ... وقضاؤه من أمه أمن الخطر
لله جودة علمه وذكائه ... في حل ألفاظ الغريب من الأثر
حفظ الإله بقاءه وبهاءه ... مصحوب عز في البداوة والحضر
وجزاه مولانا لحسن طباعه ... أسنى الجزاء مدى العشايا والبكر
وحياتكم ما زلت مذ فارقتكم ... مترقبا أخباركم فيما خبر [(1)]

ونلاحظ أن الشاعر قد تجاوز تقريظ الديوان إلى مدح صاحبه وعلى كل حال فإن التقريظ نوع من المدح.. هذا ومن التقاريظ ما قاله الحاج إبراهيم بن الحاج محمد التسليمي الطوبوى السنغالى في تشطير الشيخ كشمه لبردة البوصيرى، وها هي ذى نماذج منها:

لما وقفت على التشطير أزعجني ... شوق وهيجني ما فيه من حكم
وقلت ذا النظم بحر ليس يعبره ... إلا ذكي خلي الذهن من وهم
فخضت فيه وأخرجت الجواهر من ... لجاته ومئوج اليم في عظم
يرمي بحافته در البديع ويا ... قوت المعاني فيا للبحر من نعم
جم الجواهر إلا أن جوهرنا ... هذا فريدٌ بديع النظم في النظم
إذ فيه ما يعجز الخنذيذ من ملح ... تريك أن الفتى من فتية شهم
شطرت بردة شيخ المادحين لنا ... وتحفة العاشقين القادة القثم
محمد القطب من نار القلوب به ... كما به فاضت الخيرات كالديم
أنت المصلي وهذا الشيخ قدوتنا ... هو المجلي من الحلبات للدعم
ملكت يا محيي الدين البراعة في ... صناعة الشعر في أقرانك النجم

(١) الثقافة العربية في نيجيريا، ص ٣٤٨ - ٣٤٩.

للتاج من بين تيجان الجواهر فى ... بلادنا قيمة من أرفع القيم
دكار طابت بطيب المادحين كما ... بوصير طابت بهم فضلاً من الحكم
يا أهل «سنغال» هذا عزكم ولكم ... فخر بهذا الفتى المنعوت بالكرم
جازاك عنا إله العالمين كما ... جازى الإمام وأنجاك من السدم
(قرظت يا حب تاج الجوهر الحسن ... مرجياً شرب ماء الكوثر الشبم)
فإن مدح النبى المصطفى سبب ... لشربه والورى فى شدة القحم
خذوه يا أيها الأدباء واغتفروا ... عيوبه فالرضى من أفضل الشيم [1]

وقد قرظ التقريظ المذكور ابن عم المشطر الحاج المختار كشمه، فقال:

على تقاريظكم يا شيعة الكرم ... أغير قبل انصداع الفجر عن قلم
نهبتم رونق التقريظ قبل وفى ... تاج الجواهر أضحى القول في حطم
كما أغار خيول النهب مصبحة ... شيخ العلى فى تلاد البرد لم يلم
فزوج العزب بالعزباء فادعهما ... زوجين والزوج فى ذا الحكم لم يضم
شن لطبقة كفؤ دفء أحدهما ... شطر من البرد أو شرط من العدم
داعي الهوى ودواعي الوجد صوتهما ... سيان لا فرق بين اللحن والنغم
يثنى البوصيرى فى إعجاز بردته ... على مشاطره فى الأجر والقمم
سيقت إلى الشيخ هوناً كل ما نسخت ... أيدى الفنون فاضحى جيد الجدم
أقلامه اجعل إلهى وفق نيته ... وسائل الخير بين العرب والعجم

وبهذا التقريظ ختم حديثنا عن شعر المناسبات فى شعر شعراء العربية بغربى أفريقيا.

المديح النبوى :

وقد نال المديح النبوى نصيباً وافراً من بين الأغراض الشعرية التى تناولها شعراء العربية بغربى أفريقيا، ولا غرو أن يتجهوا نحو هذا اللون من الشعر، فهو

(١) الأدب السنغالى العربى، جـ ٢ ، ص ٢١٦ .

لون من ألوان التعبير عن العواطف الدينية وباب من الأدب الرفيع الذى لا يصدر إلا عن قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص وتفان فى حب ذات الحبيب المصطفى البشير النذير الذى بعثه الله رحمة للعالمين..

وقد راح شعراء هذه البلاد ينظمون قصائد طوالا فى مدح الرسول ﷺ والثناء عليه تقرباً إلى الله، وتعبدا، وإشباعاً للجانب الروحى فى حياتهم.. وكانوا فى ذلك بين مستلهمين ومعارضين لقصائد سبقت فى هذا الباب من نحو قصيدة البردة لكعب بن زهير وميمية البوصيرى الموسومة بالبردة أيضاً.. وكانوا فى احتذاء خطى البردتين بين مشطر ومخمس ولنبدأ بالمدائح التى لم تتسم بسيما المعارضة، فها هو ذا الشاعر السنغالى الحاج مالك سه يقول فى مدح المصطفى عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم:

أبدا بروق تحت جنح ظلام ... أم وجه مية أم ربوع شمام
إن الربوع بشارتى وأمانتى ... وربيع قلبى وهى خير شيام
والدمع إن بعدت ربوع ربوعنا ... جارٍ وجارح منحرى بسهام
مه عاذلى لو حزت علما لم تلم ... هل عذل مثلى لم يكن بحرام
ملأ الفؤاد قضاة شوقى والهوى ... ألماً ووجداً يا لطول هيام
يا غادياً يعلو السناد فبلغن ... سلعا وسل عن جيرتى بسلام
فاربع على مجنون ليلى إن لى ... داء دويا ما أبل سقام
واقرأ سلاماً طيباً تفشيه من ... حب إلى ناس هديت همام
بين لهم تبيين بر صادق ... إنى بهم حلف الجوى وغرام
يا رب ليل بت سامر أنقد [1] ... متجاوباً متساجلات حمام
ارعى الكواكب فى الصريم كأنها ... شدت بأهدابى صمام صمام
عتم ظراف كمل لكنهم ... لم يعرفوا التقوى بوقت هشام
عدل كرام معدنا لكنهم ... نالوا لدى التقسيم خير سهام

(١) أى بت ساهراً .

الطيبون معاقداً لكنهم	من جودهم قطرات غيث غمام
لا عيب فيهم غير أن جموعهم	سم العداة سعود كل إدام
عسل صفاة معتفون نثالهم	ينسون أهلهم لطيب مقام
وهم النجوم لمقتد بسمائهم	بدر الدجى منه انجلاء ظلام

واستمر الشاعر على هذه الوتيرة فوصف الرسول ﷺ بالجود والكرم والهداية... إلى أن ختم القصيدة بطلب الغفران ثم الصلاة والسلام على النبى وآله وأصحابه..

ومعانى شاعرنا فى المديح النبوى مطروقة اتكأ فيها على أوصاف المداح قبله. ولنستمع الآن إلى قيثارة الشاعر النيجيرى عبد الرحيم الذى مدح الرسول ﷺ فبدأ بالنسيب فالوقوف على الأطلال فوصفه عليه الصلاة والسلام بالجود والكرم وذكر شىء من سيرته العاطرة وإسرائه ومعراجه ثم ختم قصيدته بالتوبة وطلب الغفران.. ثم الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، فقال:

أرى برق الغواية إذ تراءى	بأقصى الشام زودنى بكاء
وما عبر الصبا النجدى إلا	وأمطر ناظرى دما وماء
وأكسبنى الهوى العذرى هما	وسقما لا أرى لهما دواء
وأمرضنى الطبيب فيا لقوم	طبيب زادنى بدواه داء
فيا للعاذلين وطول عذلى	جعلت لمن أحبهم فداء
أكاتم عنهم العبرات وجداً	وادراء السلو لهم رياء
مضت أيام جيرتنا بنجد	فأصبح كل ما وهبت هباء
أمنكرى الإخاء بغير جرم	علام وفيم تنكرنى الإخاء
فدعنى والذين أرى حياتى	وموتى بعدما رحلوا سواء
بحق هل سألت طلول نجد	فلم يجدوا لفرقتنا التقاء
وهل لك بالخبا المضروب علم	فتعلمنى بمن ضرب الخباء
وكيف أسائل الركبان عمن	أقام بذى الأراك ومن تناء

وفى أكناف طيبة هاشمى ... تصرفه السماحة حيث شاء
إمام المرسلين ومنتقاهم ... حوى الخيرات ختماً وابتداء
تناهى كل فخرٍ فى فخار ... ولم نلف لمفخره انتهاء

ويستمر الشاعر فيذكر إسراءه ومعراجه فيقول:

كفته كرامة المعراج فضلاً ... بها في القرب ساد الأنبياء
سرى من مكة ببراق عز ... لأقصى مسجدٍ وعلا السماء
فسر به الملائكة ابتهاجا ... وصلى خلفه الرسل اقتداء
وكلم ربه من قاب قوس ... وألهم فى تحيته الثناء
فقال الله عز وجل سلنى ... فلست أشاء إلا ما تشاء [(١)]
خزائن رحمتى لك فاقض فيها ... بحكمك لست أمنعك العطاء
وشفعه الإله بكل عاصٍ ... وكل مقصر يخشى الجزاء

وبعد هذه الأبيات يذكر كريم أوصافه عليه الصلاة والسلام من شجاعة وجود وكرم وكمال ثم يختم القصيدة بالتضرع والشكوى من كثرة الذنوب فطلب الغفران ثم الصلاة على الهادى البشير.

هذا وقد ضمنوا قصيدة البردة لكعب بن زهير وشطروها وخمسوها وسبعوها.. ونختار من تضميناتهم تضمين الشاعر السنغالى محمد أنياس لروعته وبلاغته.. ولنستمع إلى ألحانه فى ذلك:

بريم رامة قلبى اليوم متبول ... متيم إثرها لم يفد مكبول
ترنوا بفاتر جفن ليس يشبهها ... إلا أغن غضيض الطرف مكحول
تريك قامة غصن البان مائسة ... لا يشتكى قصر منها ولا طول
هى الشفاء لداء الصب لو صدقت ... يشفى مضاجعها شم وتقبيل
تفتر عن برد عذب فى مجاجته ... كأنه منهل بالراح معلول
لا يمسك القلب حبا غيرها أبدا ... إلا كما يمسك الماء الغرابيل

---

(١) فى البيت إقواء.

بعد الصدود لعمرى لا يقربه ... منك العتاق النجيبات المراسيل
أو ماخرات سفين من دواخنها ... للجو غيم على الأرجاء مشمول
لكن أقول لطيف الخود من وله ... لا ألهينك إنى عنك مشغول
بحب خير الورى طول الزمان ولو ... أنى على آلة حدباء محمول
لعل عفو رسول الله يدركنى ... والعفو عند رسول الله مأمول
ياسيدى إننى حلف لحبكم ... هل حبل وصلى منك الدهر موصول
لا عطل القلب من حبى لكم أبدا ... ولا من المدح نال النطق تعطيل
إنى لأرجو نوالاً منك يا أملى ... ما فيه عند حديث النفس تعطيل
فلا تعذب سمى المصطفى أبداً ... كلا وإن كثرت فى الأقاويل

وعلى هذا المنوال سار شاعرنا فى تضمينه فامتزجت أبياته بأبيات كعب والتحمت معها التحام الروح للجسد، وفى الختام يقول شاعرنا:

قفوت كعباتها فى مدحكم ولكم ... للفضل جود على العافين مبذول
بمدحكم نال كعب بردة فعسى ... تنيلنى بردة فالفضل مأمول
ورؤيتى وجهك الأسنى تبشرنى ... بقولكم أنت محبوب ومقبول
ثم الصلاة على الهادى وعترته ... ومن عليه بيوم الحشر تعويل

وهناك شاعر نيجيرى خمس البردة وهو الأمير محمد بللو بن عثمان ابن فودى يقول فى التخميس:

يا دار أخت لسلمى وهو عاقول ... أقوت فهام فؤاد وهو مذهول
وهل لصب نآه الصب معقول ... بانت سعاد فقلبى اليوم متبول

متيم إثرها لم يفد مكبول

من قهوة الدن فى موثوق أوعية ... لا قهوة البر تسقى وسط أندية
وكأسها إن أديرت كأس تهنئة ... شحت بذى شيم من ماء محنية

صاف بأبطح أنحى وهو مشمول

لا تلفتن لموعود لها عقدت واحذر مكائد كادتها وما عمدت
فإنها أبدا غدارة وجدت فلا يغرنك ما منت وما وعدت

إن الأماني والأحلام تضليل

فيا خسارة من موعودها قبلا وظن أن مراداً منه قد حصلا
كان ميعادها طيف الخيال جلا كانت مواعيد عرقوبٍ لها مثلا

وما مواعيدها إلا الأباطيل

عقارب العشق فى الأحشاء تلدغها والقلب بغيته فيها يسوغها
شطت نواها وأنى لى مبلغها أمست سعاد بأرض ما يبلغها

إلا العتاق النجيبات المراسيل

لجت بعاداً وشطت وهى سائرة والنفس رهن لديها وهى غادرة
حلت بقو عن الثلماء صادرة ولن يبلغها إلا عذافرة

فيها على الأين إرقال وتبغيل

يا رحمة أرسلت للناس فيه أمل لكل راج وإن هو قد أساء عمل
يا أكرم الخلق جد بالعفو أنت أهل مهلاً هداك الذى أعطاك نافلة الـ

قرآن فيها مواعيظ وتفصيل

وعلى هذا المنوال سار شاعرنا إلى أن ختم التخميس بالتضرع إلى الله وطلب المغفرة ثم الصلاة والسلام على رسول الله وعترته وصحابته.

أما ميمية البوصيرى الموسومة بالبردة فقد شطرها الشاعر السنغالى الشيخ محمد محي الدين كشمه، وهذه نماذج من هذا التشطير الذى يبلغ ثلاثمائة وأربعة وثمانين بيتاً:

أمن تذكر جيران بذى سلم قد بت ترعي نجوم الأفق لم تنم
أم من ظعين نات والخوض تحملها مزجت دمعاً جرى من مقلةٍ بدم
أم هبت الريح من تلقاء كاظمة فهاك شوقك هوج الريح للعلم

أم جاورت اضماً سلمى وجيرتها	وأومض البرق فى الظلماء من إضم
فما لعينيك إن قلت اكففا همتا	على الثياب بدمع جاد كالديم
تحكى البلية قل لى ما بليت به	وما لقلبك إن قلت استفق يهم
أيحسب الصب أن الحب منكتم	والدمع يقطر والأحشاء فى ضرم
هلا اعترفت بوجد شاع كامنه	ما بين منسجمٍ منه ومضطرم
لولا الهوى لم ترق دمعاً على طللٍ	ولا أننت لبرق ضاء فى ظلم
ولا شجاك غناء الورق إذ غردت	ولا أرقت لذكر البان والعلم
ولا أعارتك ثوبى عبرة وضنى	طوارق زرن والظلماء كالفحم
ولا أثارت هموم القلب إذ سكنت	ذكرى الخيام وذكرى ساكن الخيم
كم حسنت لذة للمرء قاتلة	والخسر فى نعمٍ تفضى إلى نقم
قد كان يخبأ فى طيب الطعام أذى	من حيث لم يدر أن السم فى الدسم
واخش الدسائس من جوع ومن شبعٍ	دع الغلو من الأمرين واغتنم
إن قيل فالجوع عند البعض يخمد قل	فرب مخمصة شر من التخم
وخالف النفس والشيطان واعصهما	كلاهما غير ما يرديك لم يرم
إياهما لا تشاور كن على حذر	وإن هما محضاك النصح فاتهم
ولا تطع منهما خصماً ولا حكماً	بل كن مطيعاً لخصم الخصم تستقم
الخصم يمكر والقاضى يساعده	وأنت تعرف كيد الخصم والحكم
محمد سيد الكونين والثقليـ	ـن من أتى مدحه فى النون والقلم
المنتقى سيد السكان للحرميـ	ـن والفريقين من عربٍ ومن عجم
نبينا الآمر الناهى فلا أحداً	من دون تصديقه ينجو من النقم

ولا شك أن التشطير جاء جميلاً رائعاً وإن تقاصر عن جمال الأصل وروعته.

وبعد، فإن موضوع المدائح النبوية يرجع إلى تراث قديم منذ فجر البعثة المحمدية وعلى هذا فإن الشعر العربى فى غربى أفريقيا الذى تناول هذا الموضوع لا

نجد فيه شيئاً من التجديد الذى يستحق الذكر والإشارة، خاصة من حيث المضمون، لأن الشعراء الذين تناولوا هذا الفن وجدوا أمامهم تراثاً ضخماً من القصائد يزخر بها الأدب العربى منذ عصوره القديمة.. وقد شد هذا التراث الشاعر الأفريقى لمكانة الممدوح فى قلبه فانكب عليه انكباباً كلياً واعتبره معين ثقافته الذى ينهل منه أفكاره ويستقى منه أدواته البيانية. وظل يجول فى فلكه فلم نجد له تجديداً فى هذا الموضوع يذكر، والأمر الذى يمكن للباحث أن يفتش عنه من حيث التجديد، هو أصالة الشاعر وتفرده من حيث العاطفة الروحية والتدفق الأسلوبى.

الشعر التعليمى :

أما الجنس الشعرى الثانى فهو الشعر التعليمى، وقد أكثر القوم فيه إكثاراً وأجادوا فى جميع ميادينه المتمثلة فى الزهد والوعظ والإرشاد ونظم العلوم الإسلامية، من نحو وصرف وفقه وحديث وسيرة وتنجيم ومنطق وعلم كلام.. وقد نظموا هذه العلوم تسهيلاً لطلبة العلم فى عملية الحفظ والتذكر، إذ أن الكلام الموزون المقفى ذا النغمة والإيقاع أسهل فى الحفظ من الكلام المنثور.

ويمتاز شعرهم التعليمى عن شعرهم الغنائى بلغته السهلة الشعبية القريبة من الأفهام، وقد جنحوا إلى السهولة حتى يتسنى لهم الوصول إلى الغرض من هذا النوع من الشعر وهو التعليم.

وها هو ذا محمد بللو فى إحدى إرشاداته يقول :

وكم عشت فى غرة وعماءِ ... وجهل ولهوٍ وأنت صبى
الا فانخ واسلك سبيل الرشاد ... ولا تسه عما يقول الحفى
من ازداد سنا ولم يكتسب ... علوم التجارب فهو الغبى
ومن نال علماً ولم يكتسب ... به عملاً صالحاً فغوى
ومن نال عزا ولم يفتخر ... ولم يتكبر فذاك السرى
ومن نال علماً ولم يتظاهر ... به ويجادل فذاك الرضى

ملكتُ الأمــور وقلبـتــهــا ... كــأنى عليـهــا قــديماً ولى
ولم أر كالصمت منها جميلاً ... ومكسب ذا الصمت عندى ذكى
وذى شـغب وجـدال وضـبط ... يرى أن صمتاً عن القول عى
ولم يدر أن الكلام مــلام ... وأن الصمـات مقـام على
ومن ملك النفس عمـا تريد ... وأتبعـهـا الحق فهو القوى
ومتـبعـهـا في هواها زمانا ... ولم ينهها عن هواها رضى (١)
وإن القناعة رشد كبير ... وصاحبهـا الدهر خل غنى
وذو الحرص ما إن يزال فقيراً ... وأن الحريص لئيم شقى
ومن راقب الله فى أمـره ... وجاهد فيه فذاك التقى

فالشاعر فى الأبيات السابقة يسجل نظرته إلى الحياة وتجاربه عن طريق الحكم والمواعظ وإن كانت معانيه في الوعظ مطروقة إلا أنه أجاد فى ديباجته وعرض هذه الأفكار فى قوالب سهلة لا تكلف فيها ولا تعقيد.

وله أيضاً فى الوعظ والإرشاد الأبيات التالية:

فـافـزع لله الحق ولا ... تيأس من روح المقتدر
أحسن ظنا وبه فثقا ... كيما يكفيك من الضرر
نفحات الله لها أرج ... تأتى باللطف وبالظفر
مهما اشتدت بك نائبة ... فعليه توكل واصطبر
عل المولى من رحمته ... يأتى باليسر على الأثر
أشفقت وربك مقتدر ... وبسالف عادته اعتبر
لا تقنط وارج فضائله ... فأمور الله على قدر
عجلاً يأتى فرج بهج ... الراجى منه مدى العصر
سل ربك لا تسأل أبدا ... غير المولى دفع العسر
رب من عاذ بجانبه ... يكفى من ظلم أولى الأشر

(١) كذا فى المخطوطة ولعله «ردى» أى هالك.

يأس من رحمته خسرٌ بل كفر مفض للسقر
سبحه وهلل واعترف ينجيك من الكرب الخطر
راج من فيض فواضله بيقين القلب المنكسر
أتراه يضيع راجيه كلا فالعسر مع اليسر

فالأبيات السابقة كلها تدل على الروح الدينية التى تشبع بها الناظم، إذ يمكننا استخراج معنى كل بيت من أبياته أو جلها من كتاب الله العزيز.. فقوله فى البيت الأول مستلهم من قوله تعالى: ﴿ **يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ** ﴾ [الزمر: ٥٣] وأبياته أيضاً مليئة بحقائق التوحيد الخالص كعدم الاستعانة بغير الله ووجوب التوكل عليه في النوائب والملمات.

وللوزير الجنيد قصيدة تعليمية فى الوعظ والإرشاد يقول فيها:

ألا يا أهيل العصر أين انسيابكم كأني بكم والموت والله قد نزل
نبذتم كتاب الله خلف ظهوركم وآثرتم الدنيا فألهاكم الأمل
غفلتم عن الأخرى ولم تتفكروا صروف الردى فى الغابرين من الأول
وقد عمروا الدنيا كتعميركم لها وأكثر من تعميركم ومن الحيل
وهم منكم أغنى وأكثر قوة وأطول أعماراً وفى عظم الدول
فلم يلبثوا حتى أبادهم الردى فصاروا أحاديثاً وضرباً من المثل
منازلهم أمست يباباً كأنها لخولة بالأجزاع من إضم طلل
وكم من قصور شامخات تبدلت قصوراً من الآجام يرمى بها الحجل [1]
ولم يأخذوا شيئاً لكى يتزودوا به بل أضاعوا العمر من قلة العمل
ولم يغنهم مال ولا ولد ولا حميم ولا من شح منهم ومن بذل
ألا اتعظوا واستيقظوا وتنبهوا فقد آن وقت الاتعاظ لمن عقل
فعزتكم بالله لا غير فاعلموا ومن رام عزا من سواه فذاك ذل

---

(١) الحجل: الذكور من القبج أو إناث اليعاقيب.

ألا فانصروا الإسلام وفق استطاعة بقول وفعل موقظين لمن غفل
ولا تطمعوا فى العزة إلا بنصره فطوبى لمن فى نصره قام واشتغل
وبالله لوذوا واستعينوا بنصره فما خاب من أمسى عليه قد اتكل
أيا ربنا يا مالك الأمر كله إليك لجأنا فاكفنا السوء والوجل
ولا تخزنا دنيا وأخرى وبرزخاً وتب واعف وارحم واغفر الذنب والزلل
ولا تتركنا للعدو وكيده واسبل علينا الستر عن سيء العمل
ونزه فؤادى عن وساوس شدة على اشفنى يا كاشف الضر والعلل

وبمثل هذا التضرع استمر الشاعر إلى نهاية القصيدة.

على أن الشاعر فى مواعظه متأثر بأسلوب القرآن الكريم فى الدعوة إلى اتخاذ العبرة والعظة من الأمم البائدة من عاد وثمود وأصحاب الأيكة وقوم تبع وفرعون وقارون وهامان وغيرهم.

وللشيخ الخديم أحمد بمبه منظومة طويلة فى النصح والإشاد نقتطف منها هذه الأبيات:

واعلم بأن من أبى التعلما وقت صباه سيلاقى ندما
إذ كل من لم يتبادر للعلوم مع تفرغ لها قبل الهموم
فلا ينال غالباً مطلوبه منه وليس يحتوى مرغوبه
إذ مدحوا تعلم الصغار بكونه كالنقش فى الأحجار
وشبهوا تعلم الكبار بالكتب فوق الماء فى الآثار
واعلم بأن العلم لا ينال إلا بحبس النفس عن قيل وقال
ولا يُنيل بعضه الدهر أحد ما لم يهب له الجميع واجتهد
فأعطه بلا نزاع كلكا فليلك اسهر ولتجوع بطنكا
ولتجمع الهمة فيما تطلبُ بلا التفات لسوى ما يجب
ولا تؤخر التعلم ولا تكن مسوفاً به دهراً إلى
تفرغن من جملة الأشغال إن رمت أن تلحق بالرجال
فإن للدنيا هموماً تمنع من الهدى وهى لا تنقطع

والموت يأتى بغتة وربما يكون ذو شواغل مخترما
واجتنبن ضحكاً وفرحاً وصخب أمام شيخك إذا رمت الأدب
فقد ذكرت جملة من الأدب تقضى لمن لازمها كل أرب

فهذه الأبيات السابقة تحتوى على نصائح لا يستغنى عنها طالب العلم.. وتتسم بسهولة ألفاظها وحلاوتها مما يقرب فهمها إلى أبسط الطلاب.

وهناك منظومة طويلة للشيخ الفقيه عبد الله بن على القرشى العطار تحتوى على خمسين وثلاثمائه بيت مقسمة إلى ثلاثة عشر فصلاً فى الوعظ والإرشاد، يقول فى الفصل الثالث بعنوان « فى عتاب النفس » (1).

خذ فى عتاب نفسك الأمارة فإنها غدارة غرارة
فذمها من أشرف الخصال وبرها داء بكل حال
ليست على حال تدوم أبداً ترتع فى روض هواها سرمدا
من اغتدى لنفسه محاسباً ولهواه والعدو غالبا
أصبح ما بين الورى أميرا وكان فيه سعيه مشكورا
خالف هواك تنج منه حقاً والنفس والشيطان كى لا تشقا
ذل النفوس عزها فصنها بالذل فى الله وصد عنها
نفسى عما سرنى تدافع وهى إلى ما ضرنى تسارع
قد أسرتها شهوة وغفلة تنكر شيئاً ثم تأتى مثله
كأنها ناصحة بعدلها وهى تريش للخداع نبلها
سيئة التدبير أنى أقبلت أو أدبرت أو إن نهت أو أمرت
أزجرها ولا تفىء ساعة تدرع الكبر وتنسى الساعة
تظهر خوفاً بيناً بين الورى فإن خلت فلا تسل عما جرى
وتزدهيها عجبها بجهل وتزدرى أفعال أهل الفضل
كيف السبيل فى النجاة وهى فى فلك هواها تجر ريح التلف
فمن جنا حسابها فقد ظفر ومن جناها غفلة فقد خسر

---

(1) قصيدة ذات الحكم (مخطوط).

وفى الفصل الرابع بعنوان «فى الموت» يقول:

قدم ليوم العرض زاد المجتهد ... ثم الجواب للسؤال فاستعد
تطوى المنايا العمر طيا طيا ... وأنت لا تزداد إلا غيا
وقد تولى ثم لم تقض الأرب ... والموت قد جد سريعاً فى الطلب
فلا تبت إلا على وصيه ... وإنها عاقبة مرضيه
إلام تسعى للخطايا صبا ... وقد مضى عمرك نهبا نهبا
أصلك والفرع معاً قد سبقا ... وأنت ما بينهما ترجو البقا
هيهات لا بد من النزوح ... حقا ولو عمرت عمر نوح
ومن حلول القبر عزما عزما ... ومن سؤال الملكين حتما
ومنزلٍ ما بعده مستعتب ... إلا النعيم والجحيم المرهب

فألفاظ الشاعر سلسة عذبة رقيقة سهلة شديدة القرب إلى الأفهام... وفى الفصل السادس بعنوان «التقوى والخوف» يقول الناظم:

أفضل زاد المرء تقوى الله ... سبحانه جل عن التناه
عليك بالتقوى وكل واجب ... وترك ما يخشى وشكر الواهب
وكن لأسباب التقى اليفا ... واعص هواك واحذر التعنيفا
فالفقر من تقواك شر الفقر ... وشر ما ادرعت درع الكبر
رام نعيم من جنا المراقبه ... وقدم الخوف وراع جانبه
زين الفتى خوفٌ ومعروف معا ... وشينه جوفٌ وفرج تبعا
فالخوف أولى ما امتطى أخو الحذر ... واعتقد الصمت ودع عنك الهذر
لو أن ما استملاه كاتباكا ... بأجرة منك ختمت فاكا
كُلٌّ كثير النطق جهلا قاتله ... والصمت حكمٌ وقليلٌ فاعله
طول اللسان يهلك الإنسانا ... والصمت علم يعقب الأمانا
عِيٌّ يوديك إلى السلامة ... أفضل من نطق جنا الندامه

وللشيخ الحاج منصور سه فى النصح والإرشاد الأبيات التالية:

أخى أعرنى بأذن القلب مستمعا ... يفدك من كان في الأحوال نقادا
من حكم من قد أرت فى نظمها دررا ... تكون أفضل زاد إن ترد زادا
ورأس مال الفتى عقل ومعرفةٌ ... وإن هما فقدا حقاً فقد بادا
دع معشراً حجبوا عن ربهم وعموا ... ملازماً عارفاً فى الله منجادا
حب الرياسة دع إن كنت معتنيا ... بما اعتنى القوم في مولاك مقصادا
والقوم هم حيثما كانوا على حذر ... خوفاً بإخلاصهم سلباً وأبعادا
للكبر إبليس أضحى خاسئاً حسرا ... ونال قابل منه الدهر أصفادا
لا شيء فى الدين بعد الكبر أفسد من ... حقد ولاتك أهل الفضل حسادا
من آثر العرض الدنيا المعرض للـ ... ـفنا فقد جاء بالخسران إلحادا
ولا تسىء أدباً بالله وارض بما ... جرى به الحكم إمضاء وإشهادا
فكل ما شاءه فى الكون صاح يكن ... كما اقتضى وقضى حكماً وإيجادا
سلم إليه قياد النفس واسترحن ... عن المعونات تسلم نعم من قادا
من يعرف الله حقاً ليس يزعجه ... شيء سواه وينفى عنه تعدادا
إذ كل ما كان مقدوراً فليس له ... فوتٌ وما لم يقدر فات إيرادا
إن الفتى من سما نحو العلى ودنا ... يوحد الله توحيداً وإفرادا
ويقطع الوقت قبل القطع منسلكا ... مدارج الحمق عن دنياه زهادا (1)

وعلى هذا النحو من النصح والإرشاد استمر الشاعر فى ثلاثين بيتاً على بحر البسيط فى لغة رقيقة سهلة..

ولعل من أحسن ما قيل في الزهد وحسن الأخلاق قصيدة الشاعر النيجيرى محمد سنبو بن أبى بكر التى ضمنها المقاصد الوعظية التى حوت أغلبها لامية عمر بن الوردى المشهورة التى يقول فيها:

اعتزل ذكر الأغانى والغزل ... وقل الفصل وجانب من هزلْ
ودع الذكرى لأيام الصبا ... فلأيام الصبا نجمٌ أفلْ
واترك الغادة لا تحفل بها ... تمسِ فى عز رفيعٍ وتُجَلْ (2)

---

(1) الأدب السنغالى العربى، جـ ٢، ص ١٨٣.

(2) الكشكول، جـ ١ ص ٣٠٦، بهاء الدين العاملى، تحقيق الطاهر أحمد الزاوى، ط دار إحياء الكتب العربية.

فيقول شاعرنا :

من لذى عين نفى عنه ليالى ... لذة النوم له طيف الخيالْ
يتمنى الوصل من محبوبه ... لم يزل مسكنها فوق الرمال
تشبه الدر وأولاد المها ... والدرارى وأولاد الغزال
وتراها غصن بانٍ ناعمٍ ... مائلٍ فى كفٍّ أرياح الشمال
وإذا ما نلت منها نظرةً ... أو دنواً تحت أستار الكلال
خلت بدراً شق أذيال الدجى ... حوله الأنجم شدت بالحبال
ومتى ما وعدتنا موعداً ... كان ذاك الوعد لمعاناً لآل
ما لها تنجزنا ما وعدت ... أتفى بالوعد ربات الحجال
وترى الغدر عليها واجباً ... والوفا بالعهد ضداً للحلال
أستعيذ الله من غدارةٍ ... تقتل المحبوب قتل الاغتيال
استحلت دم مسكين ثوى ... قعر سجن الحب منها فى العقال
تلك دنيا لا تكن مغرورها ... إن من غرت لمسكين الرجال
لا يكن همك فى شيءٍ سوى ... ما يفيد العيش أو خير المال
ليس للإنسان إلا ما سعى ... فليكن سعيك إحسان الفعال
خالق الناس بأخلاق الرضا ... وبإحسانٍ وإلا باعتزال
كف عن أمرٍ إذا ما اشتبها ... تنج من خوض غمارات الوبال
واكظم الغيظ ولا تغضب على ... طيش جهال هم أهل الضلال
ولباس البر والتقوى البسن ... وتعمم بحميدات الخصال
إن خير المال ما أنفقته ... ابتغاء الله من مال حلال
ومن الإيمان إمساك الأذى ... عن جميع الناس مولىً أو موال
وأذى الجار ابتعد عنه وإن ... هو آذاك فقابل باحتمال
والأمانات احفظها لا تخن ... أوف بالعهد تكن خير الرجال
كف عن مرتع ظلمٍ واعلمن ... أنه مرتع ندمٍ ووبال
وعلى الميعاد حافظ وليكن ... كل أخلاقك آداب الكمال

وحـيـاءَ وسـخـاءً ورضـاً	بقـضـاء الله مع صـدق المقـال
ودع الـكـبـر وأنـواع الـريـا	وكـذا الحـسـد وأنـواع الخـيـال
واحـبس النفس على مكروهها	وعن الشـهـوات تنج من تبـال
لـيـسـت الزينة بالأثـواب لا	إنما الزينة أخـلاق الرجـال
وابتـعـد عـمن تراه خـائضاً	لجـة العـار جـريئـاً لا يبـال
صل يا رب على خـيـر الورى	مـا طمـا البـحـر بموج كـالجبـال
وعلى أصـحـابه أهل التـقى	وكـذا آلهم هم خـيـر آل

ويلاحظ أن الشاعر قد قسم القصيدة إلى قسمين، القسم الأول منها يتحدث فيه عن الدنيا ويصورها بالمرأة الحسناء بارعة الجمال فاتنة الألحاظ تخلب القلوب وتأخذ على مجاميع العقول بنضارتها الباهرة وجمالها الخلاب غير أنها غدارة غرارة مكارة خداعة.. فهى خضراء الدمن ينبغى على العاقل البصير الإعراض عنها واجتنابها حتى لا يقع فى شراك غدرها ومرصاد مكرها.

وفى القسم الثانى حث وتحضيض على حسن التحلى بالصفات الحميدة والخصال المحمودة، والتخلى عن الصفات الذميمة والبعد عن سفاسف الأمور.

وواضح أن الشاعر النيجيرى الزاهد كان يحتذى فى أغلب معانيه حذو ابن الوردى فى لاميته الرائعة كما سبق أن أشرنا.. وفى البيت الثامن من قصيدة سنبو ما يشير إلى قراءته لشعر عمر بن أبى ربيعة فى قوله:

ليت هنداً أنجـزتنا مـا تعـد	وشـفت أنفـسنا مما تجـد [(١)]

على أن شاعرنا قد نجح إلى حد بعيد فى ديباجته وحسن نظمه وكريم نصحه الذى يسهل فهمه لغته الشعبية السهلة.. أما صدى الدين فى أبيات القصيدة فأجلى وأوضح من أن تحتاج إلى بيانه فبأدنى نظرة فيها يضع القارئ يده على مواطنها من القصيدة.

---

(١) شرح ديوان عمر بن أبى ربيعة، ص ٣٢٠، تاليف محمد محى الدين عبد الحميد، ط١، مطبعة المدنى، القاهرة.

ويتصل بالشعر التعليمي المنظومات الحكمية والإرشادية للأديب البرناوي النيجيري أبي بكر الملقب بالمسكين، وقد أجراها مجرى الحكم والأمثال على نحو قوله:

أبنت للطبيب عين دائي ... لأن ذا أدعى إلى شفائي
ومن تمنى أن يكون أكرما ... فليتق الله يكن مكرّما
ومن أطاع النفس والشيطانا ... أضاع حق الله والإخوانا
ومن يبع آجله بعاجلِ ... يبؤ بخسر عاجلٍ وآجل
إياك إياك وخضراء الدمن ... فإنما الدنيا بلايا وفتن
وإنها أخدع من سراب ... وطالبوها أخسر الطلاب
كل قضاء فله جلاب ... وكل در فله حلاب
من غض عن معايب الإخوان ... جفناً ير الستر من المنان
لا تفش يا صاح من العيوب ... ما ستر العلام للغيوب
إن جاءك الفاسق بالأنباء ... فلتتبينه إلى انقضاء
واعلم بأن من سعى إليكا ... لا بد أن يسعى غداً عليكا
وكم غنّى بات أفقر الورى ... وكم فقيرٍ ظل أغنى من يرى
إذا هفا أخوك فاعف عنه ... أو قطع الحبل فأوصلنه
وقد يكون للحسام نبوةْ ... كما تكون للجواد كبوه
ولا تمدن إلى المعالي ... يداً تقاصرت عن النوال
فجوعن كلبك يتبعكا ... ولا تسمنه فيبتلعكا
عليك بالجار قبيل الدار ... قد يؤخذ الجار بذنب الجار
ونزهن نفسك عن خسائس ... وجنبن قلبك عن دسائسِ
وموت زمرةٍ من الأشراف ... خيرٌ من ارتفاع نذلٍ جاف
واعمل لدنياك كباقٍ أبداً ... واعمل لأخراك كهالكٍ غدا
واصبر لكل ما أتى الزمان ... به فعقبى صبرك الأمان

إذا رأيت عبرةً فاعتبر	وإنما الدهر وعاء العبر
صنائع المعروف لله تقى	مصارع السوء لكل متقى [1]

وعلى هذا النسق الجميل جرى الشاعر فى نصحه وحكمه البليغة وأمثاله الرائعة.. ومعانيه فى هذه الحكم والنصح أغلبها مطروقة... ونفحات الدين فيها أريجة وهو يكاد يقف شعره كله فى النصح والإرشاد والحكم والأمثال وله فى ذلك ديوان ضخم.

ومما هو إلى الشعر التعليمى بسبب منظومات شعراء العربية فى غربى أفريقيا العلمية، وتختلف هذه المنظومات من حيث القلة والغزارة باختلاف العلماء من حيث الضلاعة والغزارة فى العلوم التى يعالجونها وينظمون مسائلها.

ولعل أبرع ناظم فى هذا الفن وأكثر غزارة في ميادينه المختلفة الشاعر النيجيرى عبد الله بن وفودى الوزير الملقب بعربى السودان لغزارة علمه بالعربية، فله منظومات كثيرة فى التفسير وعلومه وأراجيز فقهية فى العبادات والمعاملات ومنظومات فى أسانيده فى العلوم التى درسها كالحديث والفقه والتفسير والتصوف، ونذكر له هنا منظومتين فى النحو والصرف تحتوى الصرفية منهما على ألف بيت سماها «الحصن الرصين» افتتحها بالأبيات التالية:

الحمد لله الذى تعرّفا	إلى عباده بما تصرفا
وأنطق اللغات فى البوادى	البلغاء اللسن الهوادى
وعم بالروائح الأيادى	مع الغوادى المجتدى والجادى
إذ أرسل الرسول للعباد	يرشدهم مهايع الرشاد
محمدٌ سيد كل ناد	أفصح كل ناطقٍ بالضاد
صلى عليه ذو الأيادى الهادى	وآله وصحبه الزهاد
ما ناحت الحمائم الشوادى	وصاح بالأنعام صوت الحادى

---

(١) جامع الأمثال والحكم الفائقة المثال، ص ٢ – ٨ (مخطوط)، وقد أعطانى الشاعر الجزء الأول من الديوان مصوراً ولا يزال عندى.

وبعـــد فـــالعلم له رياضُ ... وبينهـا الحيـاض والغيـاضُ
وحـولهـا خـمـائل شـعـابُ ... وفـوقـهـا شـواهقٌ هضـاب
تـفـــرعت من أصلـه أفنـان ... وانشق من دوحـتـه خـيطان
ومـبـرز الأسـرار للجـمـيع ... علم لسـان العـرب الرفـيع
وهو سبـيل الفـهم للمـعـانى ... فى سنة النبى والقـرآن
قـد اعـتنى بحـفظه عـصـابة ... فى كل عـصـر هم ذوو الإصابة
فـأصلوا وأحـرزوا دقـائقـهْ ... وفـرعـوا فـأبرزوا حـقـائقـه
وقنصـوا فى نثـرهم شـوارده ... وسـردوا فى نظـمـه قـلائده

وهى منظومة قوية رائعة فى موضوعها جيدة في نظمها على أن المنظومة النحوية الموسومة بالبحر المحيط تتالف من أربعمائة وأربعة آلاف بيت نظم فيها ما أورده السيوطى فى كتابيه جمع الجوامع وهمع الهوامع.. وقد قسم المنظومة إلى مقدمة وسبعة كتب وخاتمة نذكر هنا نبذة منها :

الحـمـد لله على تسـهـيلى ... فـتح الأعـادى مـغنى النبـيل
بالخـفض والكسـر وجـر الهـون ... والجـزم فـيـهم لازم السكون
ورفـع أهـل مـلـة الإسـلام ... علـى سـواهم آخـر الأيام
بـنـصـب راية المجـاهدين ... وضم شـمـلهم فـشـاد الدين
إذ نحـوه قـد صـرفـوا القلوبا ... فـانغـمـوا من سـره الجـيـوبا
مـفـصل الأنوار فى الضـمـائر ... وعـادم الأشـبـاه والنظائر
والبـسط فى المطالع السـعـيدة ... عـمـدتهم بالمنح الحـمـيـدة
فـأعـربوا البـعض على التـصـريح ... والبـعـض مـبنى على التلويح
نهـجـتـهم من أوضح المسـالك ... خـلاصـةٍ ومنهج للسـالك
فـريدة للطالبين كـافـيـة ... بشـرحـهـا بالارتشـاف شـافـية
ثم صـلاته مع السـلام ... علـى نظام جـمـلة الأنام
محـمـدٍ نعمـتـه الَّتْ صبـغا (1) ... عـباده فـيـهـا عليـهم أسـبغـا

---

(1) الت : أى التى .

في الكلم الوجائز الجوامع ... وصحبه غيوثنا الهوامع
ما قام بالنفس ضميرٌ أعربا ... عنه فمٌ لسامع وقربا
واستعينه على نظام ... جمع الجوامع البليغ السامى
على جميع كتب العربية ... وشرحه الحائز للمزيه
همع الهوامع الروى المحيط ... كلاهما للعالم السيوطى
وربما أنقص أو أزيد ... لعلة ونيل ما يفيد
وربما قدمت أو أخرت ... لمقتضٍ داعٍ إلى ما اخترت
لقبه إذ حوى روى السيوطى ... وغيره ببحره المحيط

الكلام في المقدمة

بنت فمٍ صوتٌ إذا حرفٌ فقد ... وما حواه لفظه إن لم يفد
أولا فقوله كلمة في منفرد ... في ذى اثنتين جملة لو لم يفد
وما أفاد فالكلام والكلم ... في ذى ثلاثها وفيدٌ ما التزم

الخاتمة

أبياته زادت على آلاف ... أربعةٍ بمقصدٍ توافى
الحمد لله وصلى الله ... على محمد ومن والاه
وآله وصحبه غران ... وتابعيهم على الإحسان [1]

وللشاعر منظومة أخرى في العروض والقافية سماها : « فتح اللطيف الوافى لعلمى العروض والقوافى » .. هذا .. وللعالم السنغالى أحمد بن أبى بكر عبد القادر آن منظومة في النحو نظم فيها مؤلف ابن آجروم المعروف بالآجرومية نختار منها هذه الأبيات :

قال الفقير التلرى أحمد ... حفظه من الشرور الصمد
الحمد للجاعل في الكلام ... النحو مثل الملح في الطعام
الرافع المؤمن بالإيمان ... والخافض المشرك بالكفران

---

(١) البحر المحيط .

وبعـــد ذا فـــإننى عـــقـــدت ... مـــا نشـــر الحـــبـــر ومـــا وريتُ

مـــحـــمـــدٌ هو ابن آجـــروم ... تســـهـــيل حـــفظٍ لذوى الحلوم

ســـمـــيـــتـــه إعـــانة الطلاب ... فى فـــهـم مـــا خـــفى من الإعـــراب

إن الكلام عندهم لفظٌ مـــفـــيـــد ... مركبٌ بالوضع صن يا مستفـــيدْ

قـــد فـــســـر الوضع بوضع العـــرب ... بعضٌ ووضع العـــجم عنده أبى

وبعـــضـــهـــم فـــســـره بالقـــصـــد ... مـــخـــرج نائمٍ بهـــذا القـــيـــد

وهـو علـى ثلاثة الأقـــســـام ... ترتيـــبـــهـــا يأتيك بالتـــمـــام

اسمٌ وفـــعلُ ثم حـــرفٌ يجلب ... لأجل مـــعنىً فى ســـواه يطلب

.. هذا وقد قسم منظومته إلى تسعة وعشرين باباً.

ويتصل بالمنظومات التعليمية منظومة الوزير الجنيد النيجيرى فى معانى بعض المفردات اللغوية يقول فيها:

أيا طالباً تفسير ما كان مشكلاً ... عليه ورام الحفظ خذ ما تيسرا

فظميـاء أنثى زين فـوها بسمرةٍ ... ولثـتـهـا فافهم وكن من تبصرا

مظالم والإظلام ليس لكشـفـهـا ... تيـاجٌ لأن الأمـر سـهل لمن درا

ظبا السيف معروفٌ وأما الذى ترى ... بأسنان هندٍ اسمه الظلم لا مـرا

رويدك فاحذر من لحاظ عيونها ... .(١)

ظليمٌ على ذكـر النعـام نقـوله ... وظبيك معروف فكن حافظ العرى

وشيظمك الفرس الطويل وظللنا ... ظليل وأحسن أن تذوق بها الكرى

وجانب لظى لا يدن منك شواظها ... وذلك لهبٌ لا دخـان له عـرى

لمظك لعق باللسان على الشفه ... تتـبع أثر الأكل كن من تدبرا

حظا انتفاخ اللحم أو جمع حظوة ... تأمل بما قد كان فيه مسطرا

نظيرك أى مثل ومن أرضعت على ... جزاءٍ تسمى ظئر هذا الهاجرا

وظلفك للبـقـرات بل كل دابة ... حوافرها مشقوقة خلفها ترى

---

(١) سقط من المخطوط.

مـقـدم سـاق الرجل ظنبـوب اسـمـه   شظاظك عورٌ فى عرى الحمل للعرى
مظفـركم فـهـو المؤيد فـاسـتـمـع   ومـحظوركم ممنوع أمـرٍ على الورى
واحفـاظكم إغـضابكم من يسيئكم   حظيـراتكم مـأوى الدواب لتـسـتـرا

ويستمر الناظم على هذه الوتيرة فى تفسير المفردات اللغوية من الأسماء والأفعال التى فيها حرف الظاء فى سبعة وأربعين بيتاً على بحر الطويل فى لغته السهلة الرشيقة.

وبهذه الأبيات السابقة نختم الحديث عن الشعر التعليمى لدى شعراء العربية فى غربى أفريقيا.. على أن الأصالة لم تخالفهم فى هذا الباب وقد جاء نتاجهم فيه على غرار نظيره فى المشرق والمغرب العربيين.

وبعد، فقد رأينا كيف أن شعراء غربى أفريقيا قد تناولوا معظم أغراض الشعر العربى التقليدية كالمدح والرثاء والغزل والوصف والشكوى والحنين وشعر المناسبات والشعر التعليمى.. وترفعوا عن الهجاء إلا فيما ندر، والسبب فى ذلك تغلغل الروح الدينية فى وجدانهم وسيطرتها على مشاعرهم.. ومن هذا النادر قول ابن المقداد يهجو ابن عمه الحاج بكاى سك عندما أهدى القوم إليه «فنال»[1] فردهم بخفى حنين فلما بلغ الشاعر ذلك قال:

رد هـذا الـفـــتـى «فـنالا» فـنـالا   كـل عـــــارٍ إذ رد ذاك الـفـنـالا
تـرك العـــرض نـهـب كل لـســـانٍ   وانـثـنـى نحـــو مـــاله ثـم مـــالا
فـالفـتـى من يصـون عـرضـاً بمالٍ   مـا الفـتـى من يصـون بالعـرض مـالا

وللقاضى مجحت كل يهجو بعض خصومه هذه الأبيات:

يا من درى أنه مخصوص أشعارى   لما حوت من صفات الذم والعار
كـفـاك ذلك ذلاً فلتـخـذه كـمـا   فى السجن قد ذقته طوراً من اطوار

---

(١) فنال: هيكل يصنع من الخشب على شكل سيارة أو طائرة يضعه أهل سانولى فى الأعياد ويقدمونه إلى أحد وجهاء البلاد كهدية وتهنئة للعيد.

وصوت «ألكات» لا تنكر ولطمته ... بين الأزقة من دار إلى دار [1]
فاغتم حيث القوافى سوف يحرسه ... عن العرائس كلب عندنا ضار
هل تدعى العلم من جهل ومن حمقٍ ... وأنت منذ دهورٍ بائع سار

وفى الفخر يقول ذو النون :

ما لى أخاف عيون النحل إن نظرت ... وإننى لا أخاف الفارس البطلا
جماعة الشعراء يوماً إذا اجتمعوا ... فإنما علمى فيهم أنا ابن جلا
كم منكرٍ رام نقصى حين يسمع بى ... لما رآنى إليه مقبلاً قبلا
ولا أرى من عدوٌ شاتمٍ سفهاً ... إلا وذل بعون الله وانسفلا
ولا أبالى إذا ما الهول يطرقنى ... لطارقٍ طار فوق الجو أو نزلا

ويقول فى قصيدة أخرى :

وقائعنا مثل الرعود على العدى ... وأوجهنا مثل البروق إذا لحنا
وإنا ملوك العشق بل أمراؤهم ... قد استخلفونا فى البلاد وها هنا

هذا وقد رأينا أن شعراء العربية بغربى أفريقيا قد اتكأوا فى صورهم الفنية فى كثير من الأغراض التقليدية على القديم، وقليل خروجهم عن ذلك.. كما التزموا نهج القصيدة العربية فى أغلب قصائدهم فى تلك الأغراض.. على أنهم قد وشحوا تلك الأغراض بوشاح الدين، فظلت الأصداء الدينية تلازم قصائدهم فى جميع أغراضها الشعرية وستظهر لنا تلك الأصداء بصورة أوضح فى الفصل القادم إن شاء الله تعالى.

* * *

---

(١) ألكات : هو الشرطى باللغة الولفية .

الفصل الثالث
الملامح المميزة للشعر العربي في غربي أفريقيا

من خلال دراستنا للشعر العربى في غربى أفريقيا، نستطيع أن نحدد الملامح المميزة له فنياً فيما ياتى :

(أ) امتزاج الروح الدينية بمختلف أغراض أشعارهم، كما امتزج وصف الطبيعة فى أشعار الأندلسيين بمختلف أغراضهم.

ومن أمثلة ذلك قول عبد الله الوزير فى بائيته التى وصف فيها فساد أهل زمانه :

يقولون ما لا يفعلون وتابعوا   هواهم وطاعوا الشح فى كل واجب

مستوحياً فكرته من قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ** ﴾[الصف : ٣] .

وقوله تعالى : ﴿ **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ** ... ﴾ [الجاثية: ٢٣] .

ويظهر ذلك فى قوله أيضاً :

وليس لهم علمٌ ولا يسألونه   وأعجب كلاًّ رأيه فى المذاهب

فهو فى هذا البيت يشير إلى عدم امتثال القوم بمبدأ الإسلام فى قوله تعالى : ﴿ .. **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [النحل: ٤٣] .

وقوله كذلك فى تهاونهم بصلة الرحم :

وقطع أرحاماً وأزرى معارفاً   وآثر عن قرباه جمع الأشائب

مستلهماً فكرته من قوله تعالى : ﴿ ... **وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ** ﴾ [الرعد: ٢٥] .

وقوله أيضاً فى عدم تعميرهم للمساجد :

وما همهم أمر المساجد بل ولا   مدارس علم بله أمر الكتائب

مشيراً إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ..﴾ [التوبة: ١٨].

ويقول الشاعر إسماعيل فى الرثاء مبيناً حال الدنيا التى تنفد ومحذراً من الاغترار بها:

الله أكـــبـــر ذى الدنا لفناء ... خلقت وما خلقت أخى لبقاء
دار كثيرٌ حزنها وهمومها ... ما أضحكت إلا أتت ببكاء
كانت على كدرٍ ونحن نرومها ... تبقى لنا بمسرةٍ وصفاء

وهو ينظر فى ذلك إلى الآيات الكريمة: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧].

وقوله تعالى: ﴿... وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

ويقول الشاعر ذو النون فى المدح:

أما يتيمٌ عند هذا الشيخ لم ... يقهر وسائل جوده لم ينهر

مقتبساً من قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: ٩ - ١٠].

ويقول أيضاً فى الرثاء راضياً بالقضاء والقدر:

فما لنا بعده إلا الرضى بقضا ... ء الله بارى البرايا كاشف الكرب

والرضا بالقضاء والقدر من صميم مقاصد الإسلام بل هو من أركان الإيمان الستة.

وها هو ذا أحمد عيان سه يقول فى الرضا والصبر على القضاء والقدر وذلك فى رثائه للشيخ زين الحامدين:

يا أهل فوت نعى الناعون سيدنا ... فلتصبروا فعظيم الأجر للصبر
ليس البكاء بمجدٍ فيه خردلةً ... والصبر أجمل للمقدور والقدر
لو كان يفدى فديناه بانفسنا ... والموت لم تنج منه شدة الحذر

وهو ينظر إلى قوله تعالى: ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ [البقرة: ١٥٦ - ١٥٧].

وقوله تعالى: ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة﴾ [النساء: ٧٨].

ويقول أيضاً في فناء البشر والمخلوقات جميعاً:

ومن على الأرض فان لا بقاء له ... ولو تمطى إلى الجوزاء أو زحل

وهو اقتباس من آية سورة الرحمن التي سبق أن أشرنا إليها (١).

ويقول أيضاً داعياً القوم إلى الاعتصام بحبل الله المتين:

ماذا التدابر والإسلام يجمعكم ... والطبع واللون والأنساب والوطن
صلوا عقود حبال الوصل بينكم ... ولا تكن بينكم يا قومنا الإحن

وهو في هذه الأبيات يستلهم قول الله عز وجل: ﴿وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾ [الأنفال: ٤٦].

وقوله تعالى: ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا..﴾ [آل عمران: ١٠٣].

ويدعو القوم إلى تعمير الأرض ونبذ الخلافات فيقول:

ولتعمروا بلداً تستوطنون به ... ولتملأوه بساتيناً وأموالا
بذاك فابغوا رضا الرحمن واتبعوا ... مراده في بقاء الناس أجيالا
لا تفشلوا بنزاعٍ سوف يهلككم ... مستمسكين بما المولى لكم قالا

وأحمد عيان سه في هذه الأبيات يستقي أفكاره من قول الله جل وعز: ﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها..﴾ [هود: ٦١] وقوله أيضاً في آية الأنفال السابقة (٢).

---

(١) وهي الآية رقم ٢٧.

(٢) وهي الآية رقم ٤٦.

ويقول أيضاً في وصف مدينة «أندر» :

سماء صحوٍ نجومُ الأرض تكلؤها ... قد أشعلت لرجوم الجن إشعالا

فقد استوحى فكرة رجم الجن مسترقي السمع بالنجوم الثواقب من مجموع الآيات الأربع من سورة الصافات من قوله تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ * وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ * لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ * دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ * إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ٧ - ١١] .

وها هو ذا القاضي مجخت كل يمدح الأمير لتجور بقيامه بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيقول:

بشرى لقد شاد دين الله «لتجور» ... فأحيى اليوم بالإسلام «كجور»

تلفيه يأمر بالمعروف عسكره ... كأنما جاءه من ربه النور

وهل ترى نادياً فيه تمر به ... إلا ويسمع تهليل وتكبير

وفكرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من اساسيات مبادئ الإسلام وإن الخيرية التي وصفت بها أمة محمد عليه الصلاة والسلام منوطة بالقيام بهذه المهمة على أكمل وجه.. يقول تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...﴾ [آل عمران: ١١٠] .

ويقول الشاعر أيضاً في مدح الممدوح نفسه مشيداً بجهاده :

أقام سبعة أعوامٍ يبارزهم ... حتى رأوا أن جند الله منصور

وهو ينظو إلى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧٢ - ١٧٤] .

ويقول أيضاً في القصيدة نفسها :

حمداً إذا ما النصارى أخرجوا فلنا ... من بعدهم لديار الدين تعميرُ

أخرجتهم بحروبٍ ذكرها أبداً ... باقٍ بقاء جبال الأرض مشهور

مشيراً إلى المطلب الأساسى لخلق الله الإنسان من على هذه الأرض وهو تعميرها بالطاعة والعبادة ونفع العباد [1] .

وتقول أسماء بنت الشيخ عثمان بن فودى فى رثاء صديقتها :

وذكرنى موت الحبيبة من مضى	من الأخوات الصالحات العقائل
من الصالحات القانتات لربهم	من الحافظات الغيب ذات النوافل

ناظرة في صفاتها إلى قوله تعالى : ﴿ .. عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ [التحريم : ٦] .

وقوله تعالى : ﴿ ... فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ .. ﴾ [النساء : ٣٤] .

وتقول فى ذلك أيضاً :

وإنى لحكم الله راض وإنما	أراعى بما قد قلت حق الأخوة
وأبكى عليها بالدموع ترحماً	وشوقاً وتحناناً لصدق المودة
ولم ينه عن هذا النبى وإنما	نهى عن صراخات بآه وآهة

مشيرة إلى ممنوع البكاء والحزن على الميت .

ويقول محمد البخارى فى الجهاد مشيراً إلى وعد الله الصدق للمجاهدين :

فأمدنا رب العلا بسكينة	وكتيبة من قوة الإيمان
راجين إحدى الحسنيين لجمعنا	من جنة أو نصرة الرحمن
فأعزنا رب العباد بنصره	وأذل أهل الكفر بالخذلان

فأفكاره فى الجهاد كلها مستقاة من تعاليم الإسلام فى هذا الباب، فالله تعالى يمد المجاهدين فى سبيله بالسكينة بقوة إيمانهم به . يقول تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ... ﴾ [التوبة : ٢٦] .

---

(١) يراجع الآية السابقة من سورة هود رقم ٦١ .

والمجاهدون فى سبيل الله يرجون إحدى الحسنيين، إما النصر وإما الشهادة وكلاهما خير للمؤمن... فالله تعالى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٨].

ويقول أيضاً: ﴿... وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٧].

والله ناصر المؤمنين والمجاهدين ومذل الكفرة والملحدين، يقول تعالى: ﴿... وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٧].

ويقول عن الزهد فى الدنيا:

وازهد عن الدنيا فإن نعيمها ... أضعاث أحلام وظل زائل

متأثراً بقوله تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

ويقول فى الرثاء:

أقلى فإن الموت حتمٌ على الورى ... وكل امرئٍ يوماً يسير إلى القبر

ناظراً إلى قوله تعالى: ﴿.. كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وها هو ذا محمد سنمبو يقول فى لامته الزهدية:

ليس للإنسان إلا ما سعى ... فليكن سعيك إحسان الفعال

مستلهماً قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ [النجم: ٤٠ - ٤١].

وفيها يقول أيضاً:

كيف عن أمر إذا ما اشتبها ... تنج من خوض غمارات الوبال

رامياً إلى قول المصطفى عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك [1]».

---

(١) رواه الترمذى والنسائى.

ويقول أيضاً :

واكظم الغيظ ولا تغضب على طيش جهال هم أهل الضلال

مقتبساً من قوله تعالى : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] .

ويقول أيضاً فى التقوى :

ولباس البر والتقوى البسن وتعمم بحميدات الخصال

جامعاً مقاصد الإسلام فى الحث على البر والتقوى والتخلق بمكارم الأخلاق وناظراً إلى قوله تعالى : ﴿ ... وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ .. ﴾ [الأعراف : ٢٦] .

ويقول فى مراعاة حق الجار :

وأذى الجار ابتعد عنه وإن هو آذاك فقابل باحتمال

مستوحياً قول الحبيب المصطفى عليه الصلاة والسلام : « والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن، قيل : من يا رسول الله؟ قال : من لا يأمن جاره بوائقه »[1] .

وقوله عليه الصلاة والسلام : « ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره »[2] .

ويقول أيضاً فى حفظ الأمانة ووفاء العهد :

والأمانات احفظنها لا تخن أوف بالعهد تكن خير الرجال

ومشيراً إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ [النساء : ٥٨] .

وقوله عز من قائل : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ﴾ [الإسراء : ٢٥] .

ونكتفى بهذا القدر من الأمثلة .. على أن هذا الملمح ظل يلازم الشعر العربى فى غربى أفريقيا فى جميع أغراضه ولم يتخلف عنه لحظة من اللحظات .. ولا غرابة فى ذلك، إذ لولا الدين الإسلامى لما كان للقوم شعر باللغة العربية .

---

(١) رواه مسلم . (٢) رواه البخارى ومسلم .

(ب) الصور والأخيلة والمعانى والأسلوب، مقتبسة غالباً من ثقافتهم الأدبية فى الشعر العربى القديم :

فمثلاً عندما نقرأ شعر القوم نجدهم يعمدون إلى التشبيهات القديمة المحفوظة والصور الشعرية المكرورة فى الشعر القديم، فإذا شبهوا المرأة الحسناء فهى تحكى الظبى فى كناسه والبدر فى سمائه وهى مهاة وألحاظها سيوف باترات وقدها غصن يتثنى ونهود الحسان كالرمان وخدودهن كالتفاح وعذوبة ريقهن كالخمر المعتقة ويتعطفن كالرماح وخصورهن كأحقاف بدعص .. إلى غير ذلك من القوالب الموروثة ..

فمثلاً يقول أحمد عيان سه يصف حسان « كولخ » :

وبدوراً بها فتن عقولاً ... ولحاظًا بها رمين جفانى

وظبيًا بها أغن كحيلاً ... فاتنًا فاتر الجفون سبانى

فتن القلب دله فشجاه ... يا لقلبى من ذلك الفتان

ويقول يونس ذو النون فى الغزل:

فتفوق أوجهها البدور وتزدرى ... نفحاتهن بكل مسك أذفر

مهما شدا شادٍ أملن قدودها ... كغصون بانٍ غب ريحٍ صرصر

ويقول فى قصيدة أخرى غزلية:

معازفها تشجى القلوب رنينها ... فتهتز أغصانًا قدود غوان

ويقول الهادى تورى فى وصف حسانه:

ونساؤه حور حسانٌ خرد ... ظبيات وجرة كاملات الرونق

فلئن رنون فذاك أقتل للفتى ... من ضرب أسياف ورمى البندق

ويقول أيضًا فى القصيدة نفسها:

راد تخجل فيه يوحًا وجهها ... بدل السراج لدى الدجى للطرق

لا علم لى أبقدها أم خدها ... أم جيدها أم قولها المترفق

تسبى العقول وتسترق قلوب جنـ ـسى غير أنى كالأسير الموثق

والقد غصن واللهيب كخدها والجيد جيد الرئم عند المطرق

ونجدهم يقلدون القدامى فى مناجاة الحمامة عند الغزل، فها هو ذا أحمد عيان سه يقول فى الغزل:

أنوح وقد ناحت بقربى حمامة يهيجها نحو البكاء هديل

ودونى يعقوب على فقد يوسف وترحمنى وقت النواح ثكول

ويقول فى المعنى نفسه الشيخ الهادى تورى:

فأقول عند سماع نوح حمامة يا جارتى ماذا دعاك لمأمق

ويتابعون القدامى فى وصف ليالى الوصل وأيامها بالقصر، فها هو الشيخ الهادى تورى يقول:

ولرب ليل مثل إبهام القطا بتناه فوق سريرها فى عيهق

أعوامها مثل الشهور شهورها مثل الليالى ليلها كالمبرق

وفى وصف طول ليل الهجر والصدود يقول الوزير الجنيد:

تطاول ليلى واستمرت وساوسى وفاضت على نحرى بحور المدامع

وبت أراعى النجم فى غيهب الدجى أشير إليه تارةً بالأصابع

وصرت أمنى الصبح حتى كأننى أبيت على جمرٍ من النار لاذع

ومن مظاهر متابعتهم القدامى اقتباس معانيهم فى شتى الأغراض فمثلاً يقول الهادى تورى فى وصف محبوبته:

ولو نال ذو سقم بفيها قبلةً كان الشفاء له بدون ترفق

وهو معنى قديم سبق إليه الشاعر.

ويقول أيضًا فى وصف ركوبه:

ومطاه يبرق حابيًا متطاولاً أعلى ذرى نيق الجبال الشهق

وكـــأنما وقع السنابك في الكدى   زند المقدح أو حبـاحب مـخـفق

فوصف سنالبك الخيل بالقوة والصلابة وصف قديم قدم الشعر العربي، فها هو ذا عنترة يقول:

وحوافر الخيل العتاق على الصفا   مثل الصواعق في قفار الفدفد[1]

ويقول أيضًا في مبارزة الأقران:

فــربما بارزت وحــدي فـتـيـةً   كـعـديدكم بطعـان رمحٍ مـزرق

وأثرت فـيـهم قـسطلاً مـتـراكـمًـا   طاشت به ألبـاب ذاك الفـيـلق

حــتى تبــدل ليلةً ذاك النهــا   ر وما النجوم سوى السيوف البرق

وهو مأخوذ من قول بشار بن برد:

كـأن مـثـار النقع فـوق رؤوسنا   وأسـيافنا ليل تهاوى كـواكـبه[2]

ومن اقتباسهم من معاني القدامى الفخر بالشجاعة في منازلة الأقران، يقول محمد البخاري:

وأطاعـن البـطـل الكـريـه نـزالـه   إن صــد عنه أمـاثل الشـجـعـان

فهو يأخذ عن عنترة وغيره حيث يقول:

ومــدجج كــره الكمــاة نزاله   لا ممعنٍ هربًا ولا مـســتـسلم

جــادت له كـفي بعـاجل طعنة   ورشــاش نافـذة كلون العندم[3]

ومن ذلك أيضًا ارتباط صورة القتلى والجرحى بالطيور والسباع والضباع، يقول محمد البخاري:

---

(١) وصف الخيل في الشعر الجاهلي ص ١٢٦، د. كامل سلامة الدقس، ط دار الكتب الثقافية – الكويت.

(٢) ديوان بشار بن برد جـ١، ص ٣١٨، شرح محمد طاهر بن عاشور، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة.

(٣) ديوان عنترة.

ولقـد تركنا جلهم فى معـرك   جزر السباع وأسغب العقبان

ويقول فى ذلك أيضًا القاضى مجخت كل:

ورب يوم به العقبان قد حمدت   فعل العوالى وفعل البيض والنصر

ويقول أيضًا

مار النسور مرارًا والضباع معًا   منهم وهل جمع أهل الشرك مكسور

ما زال يضربهم بالبيض يطعنهم   حيث الرصاص مع البارود منشور

لم يشتك الجوع من نسرٍ ومن ضبعٍ   إلا وهامهم فى البيد مجرور

وهى صورة تكررت كثيرًا عند أبى تمام والمتنبى.

ولعل أوضح مثال على محاكاة القدامى والاقتباس منهم فى الصور والمعانى وصف القاضى مجخت كل لجيش «لتجور» حيث يقول:

ومن «مناداخ» جمعت الخيل يركبها   مرد علامتهم حلق وتقصير

مثل الجراد بهم غص الفلاء وقد   غاظوا وفاروا كما قد فار تنور

يبادرون حياض الموت قاطبة   شم العرانين أبطال مشاهير

ينازعون جيادًا فى أعنتها   ترنو إليهم نساء الجنة الحور

يمشى المشاة أمام الركب واحتفلوا   أقدامهم تشتكيها التل والغور

لها غبار يكاد الجو ممتلئًا   منه إذا قلت فيهم آمرًا سيروا

سيرتهم فأجدوا سيرهم وأتى   بهم سرى ثم إصعاد وتهجير

يقودهم عمك المختار محتزمًا   كالليث ذى اللبد الشاكى أظافير

نعم إن شاعرنا كان فى كثير من معانيه وصوره فى هذا الوصف للجيش مقتبسًا من محفوظاته من الشعر القديم إلا أنه ساق ذلك فى تدفق وانفعال..

ويستعير الشيخ مالك سه فى وصف شجاعة ممدوحه معنى قديمًا متمثلاً فى إقراء العدو بالحسام فيقول:

وبرك البربر العادون إذ علموا بأن موقد نار الحرب مقتدر
إذ كل من عاف منهم ما تدين به قراه يوم التلاقى الصارم الذكر

وبما يدل على شغفهم بمحاكاة القدامى واقتباس معانيهم وصورهم هذه المغامرة الخبيثة الداعرة التى نظر فيها الشيخ الهادى تورى إلى كل من امرئ القيس إمام هذا الفن وتلميذه النابغ عمر بن أبى ربيعة فيقول:

فلرب ليلٍ مثل إبهام القطا بتناه فوق سريرها فى عيهق
لا سيما ليلٌ طرقت خباءها وهنًا وبتنا فى تمام المانق
فكأن بردى من مباشرتى لها من بعد فرقتنا لطيخ الزنبق
حتى إذا استبدلت نكهة ثغرها من أذفر المسك الذكى المعبق
نبح الكلاب وصاح ديك الحى وانـ ـتشر الضياء فبابنا كمصفق
قلقت وقامت تشتكى غير الرقيـ ـب ووجهها متغير للمقلق
قالت لإشفاق الهلاك على يا هذا ألا تحت السرير اخر نبق
كثر الرجال على الطريق وكلهم بطلٌ غيورٌ رمحه ذو ممرق
فأجبتها والله لست بفاعلٍ وستعلمين بأننى لم أخفق
أما القتال إذا تعرض لى فلا أبدًا أرى بمجنٌ عمر اتقى

هذا، ويتصل باقتباسهم من القديم ظاهرة الوقوف على الأطلال، فها هو ذا محمد بللو يقول:

يادار سلمى باللوى فالباب قفرًا لطول تراوح الأقطاب
ولقد وقفت بها أسائل رسمها إذ لم أجد متكلمًا بجواب
ولقد عهدت بها الحلول يزينهم بين الوجوه ثواقب الأحساب
دع عنك ذكرى خودة وديارها وأوانسٍ جاراتها أتراب

ويقول أيضًا:

لمن طلل عــــاف بذات بطاح فــأكناف جــارات فــذات براح
وقـفت به صـحبى أسـائل ربعـه عن الحىِّ أيا يممــوا بســجــاح
فدع عنك ذكراها وذكرى رباعـهـا وهل بعـد شيب من صبى ومزاح

ويقول فى نفس الموضوع أيضًا الشيخ الهادى تورى:

لمعـان برق الليل نحــو المشــرق أبدا هوى قلبى بنور مــشــرق
آه علـى أطلال دار أحــبــة لى البـرق خـيلهـا كـرؤيا المخـفق
فـتــخـيلت لى دار عــزة والربا ب وفـرتنى والكل كـالمتـحـقق
فـوقـفت أبكيـهـا ولا كـبكاء خنـ ـساء على صـخـر ولا كـالخـرنق

ويقول فى ذلك أيضًا محمد البخارى:

أصــحــوت أم هاجت هواك منازل عــفى مــعــارفــهــا البلى وهواطل
بتلاع «ثامى» أو «بجن» فـمـا بهـا إلا نـعـــام تـرتـعى وفـــراعـل
دار عــهــدت بهـا الحلول وكل من أهوى مــعى والعـيش غض باجل
ولقـد وقـفت برسـمـهـا مـسـتـخـبراً عن أهلهـا والدمع منى سـائل
لله درك هـل وقـــوفـك نـافـع برسـومـهـا أم هل لدمـعك طائل
فـدع الديار وذكـر أخـدان الهـوى وخـرائد فى مـشـيـهـا تـتـمـايل

ويقول أيضًا فى قصيدة أخرى:

أمن آل أمِّ مــحــمــد طللان مـخلولقـان «بجن» ذى القـيـعـان
وبجنب «ثامى» ذى الربا عـفـاهـمـا قـــدمٌ وكـل أجـش ذى هـطلان
أقـوت ديارهـمـا سنين فـمـا ترى فـيـهـا سـوى الآرام والريلان
ولقـد أطلت بها الوقوف وصحبتى نسل الديار عن أهلهـا الخـلان
فـأجـابنا من بعـد طول قـائلاً أنتم ومن تسلونه سـيـان

ويقول الوزير الجنيد فى نفس الموضوع أيضًا:

ظعن الذين عهدت فى ذا النادى   ماذا وقوفك فى الطلول تنادى
وعلام تبكى من بكاء حمامة   فى أيكةٍ تشدو على التَّرداد
والدمع يجرى فوق نحرك سائلاً   كالماء يجرى فى مسيل الوادى
ذهبوا وغير رسم دارهم البلى الـ   ـمردى وطول تهجرٍ وبعاد
حتى كأن ذراهم لم يغشها   ذو حاجةٍ من رائح أو غادى
صارت مراتع للوحوش بعيد أن   كانت مقاصد حاضرٍ أو بادى
أقوت فلست ترى بها أحداً سوى الـ   ـحرباء لائذةً على الأعواد

ويقول أحمد عيان سه فى الأطلال أيضًا:

أإن عرضت بسلعٍ دارس الطلل   أجريت ما كان فى عينيك من بلل
وقفت فى الدار محزونًا تسائلها   عن ساكنيها فلم تسمع ولم تقل
وأجهل الناس من يبغى الجواب لدى   ربع محيلٍ بعيد العهد بالحلل
يظل فيه سوام الريح منجفلاً   بعد الأوانس والأنماط والكلل

ويقول ذو النون فى مقدمته الغزلية:

عفت لسعاد من يبرين دورٌ   على أطلالها أسفًا ندور
وقد كنا بها والعيش صافٍ   وكاسات الهوى كنا نَدير
تجيب الصاهلات كران شادٍ   يرن لنا كما يتلى الزبور
وعهدى عن مساكنها الخوالى   لها حجج وتتلوها شهور
فأمسى الربع لم يؤنس ملما   به إلا نئيمٌ أو زئير
ولم يسمع لذى الأطلال إلا   عواء أو بغامٌ أو صفير

ونلاحظ أن أن شعراء غربى أفريقيا فى وقوفهم على الأطلال قد تقمصوا أسلوب القدامى فيه، فوصفوها متناولين جميع عناصرها من الرياح التى بدلت معالمها والأمطار التى عفتها والغزلان والبقر الوحشى وغيرها من الحيوانات

التى حلت بالأطلال بعـد رحـيل أهل الديار. ثم آثـار الديار من نؤى وأنماط وكلل.

(جـ) توظيف ثقافتهم العلمية من تاريخ ونحو وصرف وفقه وحديث وحساب وتنجيم وفلك ومنطق وغير ذلك فى لغتهم الشعرية.

فها هو ذا أحمد عيان سه يقول فى الرثاء موظفًا ثقافته التاريخية عن مقتل حسين بن على بن أبى طالب كرم الله وجهه:

كـأن نعـشك شـمس إذ تسـير به   ضيفًا إلى الروضة الفيحاء ذى الحزن

تخـال نعش حـسين فى بكًا وأسىً   بكربلا بين مكبـود وممتـهن

ويستغل ذو النون أيضًا ثقافته التاريخية فى مدح الشيخ أحمد بمبه فيقول:

مـا مـثله كـسرى عـلاً ومـهابةً   بل دون مـأواه جـلالة قـيصـر

ويقول أيضًا موظفًا ثقافته فى علم الحديث:

بل مـا حكى حـاكٍ بديعًـا مـثله   بل لم يعنعن فى ممرِّ الأعـصـر

مشيراً إلى العنعنة فى رواية الحديث.

ويوظف ثقافته فى الأدب فى إحدى غزلياته فيقول:

يسـيـر بشـوقـه قـيسٌ وإنى   على عـلات أشـواقى أطيـر

مشيراً إلى قصة قيس بن ذريح المشهور بمجنون ليلى.

ويوظف عبد الله بن فودى ثقافته النحوية فى المدح فيقول:

ولهم ككان ومبـتـدا فى جـارهم   عـملٌ لغـيـرهم كلم أو فى يج

وفى ذلك يقول ذو النون فى الغزل:

قـد كنت مبدأ وغيرى فى الهوى   خـبرى ومعـرفة غـدت لم تنكر

ويقول أيضًا فى المدح:

إن شـئت ذكّـره وأنث غـيـره   شـتـان بين مـؤنث ومـذكـر

ويقول أيضًا فى الغزل:

وما ضم مثلى فى الصبابة والهوى ... ظروف مكان أو ظروف زمانِ

ويستغل ثقافته فى القراءات والنحو أيضًا فيقول:

طويتم بساط الأنس من بعد نشره ... كما كان يطوى قارئٌ هَمْزَ وَصْلِهِ

كما استغل ثقافته الفلكية فى المدح حيث يقول:

فبنات نعش دون شسع نعاله ... بل دون رتبته السهى والمشترى

وفى ذلك أيضًا يقول أحمد عيان سه فى الرثاء:

قد شط قرن لموت السيدين كما ... يأتى الكسوف ببرج الجدى والحمل

ومن على الأرض فإن لا بقاء له ... ولو تمطى إلى الجوزاء أو زحل

(د) كثرة استعمالهم الغريب من الألفاظ فى أشعارهم:

فها هو ذا عبد الله بن فودى الوزير يمدح فيأتى بالغريب ويركب متوعر الألفاظ فيقول:

عُج نحو أضواج الأحبة من «مج» ... واشرب من الأنشاج ماء الزعبج

ثج الدموع على منازلهم بها ... واشف الجنان من الهموم الدمجِ

قف عندها سل من بها فعسى تجب ... حوجاء أو لوجاء ترضى من شُجى

وهى قصيدة طويلة يصعب على القارئ فهمها بدون أن يستعين بالمعاجم اللغوية .. ويعتبر عبد الله بن فودى أكثر شعراء العربية شغفًا بهذه الظاهرة.

وها هو ذا محمد بللو أيضًا يتباصر بالغريب فى مدح شيوخه فيقول فى بعض أبياته:

يا دار سلمى بقوٍّ أو بخيف منىً ... أقوت كأن لم تكن صارت لها وطنا

..خلتْ كأن بها خيط النعام ضحىً ... كومٌ تروت وأتت فى الضحى عطنا

وحين لم ألف إلفًا فى معاهدها ... سليت نفسى بصعب إن جرى أرنا

فحلٍ سبحلٍ أنيق عوهن ثقفٍ كأنه قارب أمواجه السفنا
كأن رحلي بذي ضال ودارتها على أقب بجزع يبتغي أتنا
مسحجٍ فارحٍ مستأنس وحدٍ مما تعاوره الكلاب في ضجنا
فأفردوه فأضحى لا يوالفه عينٌ ولا مسحل البهمي لذا مزنا
فذاك يبلغني داراً بها نزلت سحابة العلم تهمي لم تزل زمنا

هذا، ونكتفي بهذين المثالين لظاهرة الغريب من الألفاظ في شعر هذه المنطقة، على أنها ظاهرة ملموسة من جميع شعراء هذه البلاد . . .

(هـ) ذكر كثير من الأمكنة في أشعارهم من حصون وحياض وأنهار ومدن، وبخاصة تلك التي كانت تدور حولها رحى الحرب:

فها هو ذا عبد الله بن فودي في غزوة «غوبر» يقول:

وكم طللٍ علمت «بريم» خالٍ و«شمغل» كو «كن» و«غلم غلم»
وكم يومٍ «بكن» لنا عليهم و«طان غادا» و«غردم» أي يوم
فأوردهم «بفافرا» حوض موتٍ ففر لأهله بلباس لوم

ويقول في غزوة «غار»:

يا أهل «غار» ألما يكفكم «كشنا» والجار يسمع ما قد حل بالجار
كذا «كنو» مع «زكزك» وهي قربكم و«زنفرا» مع «غوبر» نسل «بابار»

ويقول محمد بللو في انتصارهم على الوثنيين:

سرنا إلى «غمكي» وفر «الاسون» قواد أهل الشرك والأحزاب
نزلوا «كدابي» بالعتو وألبوا أهل القرى وبوادي الأعراب

ويقول أيضاً في غزوة «كنو»:

سائلوا عنا وعن أعدائنا يوم دار الحرب في «كنو» الحفر
.. ولكم كسرَّ به فرساننا في صناديد «كياوا» المنكسر

ويقول أيضًا فى إحدى جهادياته:

فحزنا ياتوارك أهل «أزبن» ففروا كى يخلصكم فرار

ويذكر عبد الله الوزير الحصون التى فتحوها فى إحدى غزواتهم فيقول:

فتحنا حصونا بين «كند» و«كندكا» تزيد على عشرين بالقهر والقوى

ويقول محمد البخارى فى الانتصار على البغاة:

سل أهل «زنفر» عنهم يوم التقوا «بابيت» بعد تحزب السودان

من أهل «ياور» كلهم و«كتنكرو» وسواهم من ناصرى الشيطان

ويقول القاضى مجخت كل فى وصف بسالة «لتجور»:

تالله ما سالموا إلا لما عهدوا أيام لاقوك فى «كولكول» وفى «لور»

و«يوك» بعد «مخ» فالسلم موجبها لم يخف أنك يا ضرغام محذور

ويقول فى قصيدة أخرى:

وظن أن له منجًا ومعتجمًا إذ صار «جور» له سكنى و«كوور»

ويقول أيضًا:

أصادق فى ادعاء لدين الله «لتجور» أم إنما همه فى ذاك «كجور»

..فثم ولوهم الأدبار فانهزموا بالذل فادعوا الإسلام فى «جور»

ويقول أحمد عيان سه فى الوصف:

قد رجعت «سانلويسا» روحه وزهى وسر سور كما شئناه وارتاحا

هذى شموس «دكار» حل طالعها فينا فكل بما يخفيه قد باحا

ويقول فى الحنين إلى «كولخ»:

لست أنسى ظباء «كولخ» فيها وضباء القنا وعين عمان

ويقول أيضًا فى شعره الاجتماعى:

يا أهل «سنغال» لا عاداكم الزمن لم لا تسير بكم نحو العلى سفن

ويقول الوزير الجنيد فى الحنين إلى بلده:

لى فى المعاهد صبوةٌ لكنها ليست تعاشر صبوتى فى «يولا»

ويقول في وصف رحلته إلى السودان أيضاً:

خرجنا بعون الله من «غلس» إلى الـ ـمطار وكنا كالطيور البواكر
فطارت بنا في الجو ولاجة الهوا تدافع أمواج الهوا في الهواجر

هذا، وقد أعطت هذه الأماكن والحياض والأنهار والحصون والمدن الشعر العربي في غربي أفريقيا نكهة أفريقية مميزة وأضفت عليه طابعاً إقليمياً مميزاً انفرد به غصنه من بين أغصان دوحة الشعر العربي أو الأدب العربي عموماً..

(و) بُعد شعرهم عن التعقيدات الفلسفية والعمق الذهني، واعتمادهم على العفوية والبساطة وعدم التكلف ..

ونجد أنفسنا في غنى عن ذكر الأمثلة على ذلك فكل بيت من أبيات شعرهم تقريباً يقوم مثالاً ودليلاً على ما قلناه.

(ز) موسيقا أشعارهم تدور في البحور الرحبة غالبًا وقليلاً ما تخرج عنها.

فإذا تناولت شعرهم بصفة عامة تجد أن الأوزان الأثيرة عندهم تأتي من حيث الكثرة على النحو التالي:

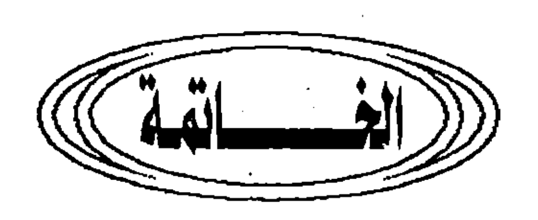
البسيط ثم الطويل فالكامل ثم الوافر فالخفيف وقليل جداً خروجهم عن هذه البحور الخمسة .. ولا غرابة في أن تستأثر هذه الأوزان أو البحور بمعظم أشعارهم، فقديمًا كانت الأوزان الأثيرة عند الفحول ..

يقول أبو العلاء المعري: «والبسيط والطويل ليس في الشعر أشرف منهما وزنًا، وعليهما جمهور شعر العرب. وإذا اعترضت الديوان من دواوين الفحول كان أكثر ما فيه طويلاً وبسيطًا .. والأوزان التي تتقدم في الشعر كله خمسة: ثلاثة هي ضروب الطويل بأسرها، والضربان الأولان من البسيط.

... ويلي هذه الخمسة في القوة ثلاثة أوزان وهي الوافر الأول .. والكامل الأول.. والكامل الثاني [1].

---

(١) الفصول والغايات، ص ٢١٢ - ٢١٤ ، لأبي العلاء المعري ط المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر - بيروت.



الخاتمة

تبين لنا من خلال دراستنا للشعر العربى فى غربى أفريقيا الحقائق الآتية:

أن دخول الإسلام إلى هذه المنطقة قديم، فقد كانت الإشراقة الأولى للإسلام على هذه البلاد فى أواخر القرن الهجرى الأول، وهى الحقيقة التى تثبتها وتؤكدها حقائق تاريخية تمثلت فى قدم العلاقة بين هذه المنطقة وبين بعض البلاد الإسلامية كمصر وأفريقية، وهى علاقات كانت فى بدايتها تجارية .. وما أن أشرق الإسلام بنوره على الجزيرة العربية ومن ثم على مصر وأفريقية، حتى تحولت إلى علاقات دينية فى الدرجة الأولى..

وأن اللغة العربية واكبت خطوات الإسلام وظلت تتطور حتى أصبحت لغة الإدارة الرسمية فى شتى ممالك المنطقة .. ونحن على ذكر بما ذكره البكرى من استعانة ملك «غانة» قبل إسلامه بخبراء الإدارة والتراجمة من المسلمين .. كما رأينا دولة «مالى» أيضًا تتخذ العربية لغة رسمية، وكذا دولة «صنغاى» و«دولة الفلانى» التى أسسها الزعيم الروحى الشيخ عثمان بن فودى فى نيجيريا ..

وأن الفرية الاستعمارية التى تزعم أن حضارة غربى أفريقيا مرتبطة بالغرب مزيفة منقوضة، ذلك أن الإسلام هو العامل الأول والأخير فى صبغ هذه المنطقة بالحضارة الحقيقية والرقى السلوكى .. ويوثق هذه الحقيقة أن القوم كان لهم واقعهم المادى المتمثل فى النظم السياسية والعسكرية والاقتصادية. ونحن على ذكر بما قرره عنها المؤرخون والجغرافيون العرب المسلمون، أمثال ابن الفقيه والفزارى وابن حوقل والعمرى والبكرى وابن خلدون الذى يقول فى أهل «غانة»:

«كانت أعظم أمة ولها أضخم ملك» وقد جعل القلقشندى سلطانها من

بين سلاطين الدنيا الأربعة .. ثم جاء الإسلام فانتشلها من هذا الواقع المادى إلى حضارته التى تجمع فى نسيجها بين الرقى المادى والرقى الروحى الذى استشعر الإنسان الأفريقى تحت ظله كرامته البشرية كما وجد فيه ضالته الروحية. وأن الشعر العربى القديم كان له الأثر الأقوى على ملكاتهم الفنية فيما أنتجوه من أشعار، وربما كان يرجع ذلك إلى تشابه البيئة التى هى أقرب إلى البداوة ..

وأن النغمة الدينية قد غلبت على معظم أغراض شعرهم كما غلبت النغمة الحماسية على أشعار الجهاد ضد الوثنيين أولا ومقاومة الاستعمار ثانيًا..

وأن لغة أشعارهم فى شتى الأغراض الغنائية قد اتسمت بالجزالة ووعورة الألفاظ أحيانًا، كما اتسمت أشعارهم التعليمية بلغة شعبية سهلة شديدة القرب من أفهام العامة..

وأنه لم يتح لأغلب شعراء غربى أفريقيا الاطلاع المنظم على دواوين الشعر العربى القديم فى جميع عصوره، فيما عدا القصائد الست للشعراء الجاهليين .. وإنما استقوا ثقافاتهم الأدبية من كتب تستشهد بهذه الأشعار، ولذلك قل الابتكار والتجديد عند الكثرة الكاثرة منهم .. كما أنه لم تبلغهم بشائر النهضة للشعر العربى الحديث، الأمر الذى يفسر غلبة تأثير الشعر العربى القديم – والجاهلى منه خصوصا – على أشعارهم أكثر من غيره.

وأخيراً، فإننى أتقدم بدعوة جامعات الدول العربية بصفة خاصة والعالم الإسلامى بصفة عامة، إلى العناية بتراث منطقة غربى أفريقيا العربى الإسلامى، وبعثه من غياهب خزائن مكتبات فرنسا وبريطانيا وجامعات غربى أفريقيا .. وصرف جهود طلاب الدراسات العليا العربية والشرعية والتاريخية والحضارية نحو تحقيق ودراسة هذا التراث الثمين الذى يسهم بنصيب وافر فى إثراء مكتبة التراث العربى الإسلامى ..

هذا ما نرجوه .. والله الموفق ،،،

وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ......



فهرس المصادر والمراجع

أولا - المخطوطات :

● إبراهيم نياس.

مجموعة قصائد.

● أبو بكر بن أحمد (المسكين)

ديوان شعره المسمى (جامع الأمثال والحكم الفائقة المثال).

● أبو بكر بن محمود غمى

ديوان أبى بكر غمى.

● أحمد بمبه البكى (الشيخ الخديم)

مجموعة أشعار.

● أحمد عيان سه

ديوان شعره.

● أسماء بنت عثمان بن فودى (نانا)

مجموعة أشعار.

● إسماعيل بن محمد

مجموعة أشعار.

● ابن العربى، له

قصيدة فى المدح.

● الجنيد بن محمد البخارى (الوزير)

ديوان قصائد الوزير.

ضبط الملتقطات.

إفادة الطالبين ببعض قصائد أمير المؤمنين محمد بللو.

إتحاف الحاضر بمرأى المسافر.

تفريج النفس بذكر زيارة العراق والقدس.

مجموعات الدعوات والتوسلات.

روائع الأزهار من روض الجنان.

الرحلة الممتعة إلى ليبيا والسودان والجمهورية العربية المتحدة.

● عبد الله بن فودى (الشيخ الوزير)

تزيين الورقات

البحر المحيط.

الحصن الرصين (الحصن الرصين).

مجموعة قصائد.

فتح اللطيف الوافى فى علمى العروض والقوافى.

● عبد الرحيم

مجموعة أشعار.

● عمر إبراهيم (القاضى).

ديوانه « حديقة الأزهار ».

● مالك سه الشيخ

مجموعة أشعار.

● مجخت كل (القاضى)

محمد الأمين بن الزبير

مجموعة أشعار.

• محمد البخارى بن عثمان

الميل على حب النساء.

• محمد بللو بن عثمان (السلطان)

مجموعة قصائد.

مرثية عمه عبد الله.

تخميس بانت سعاد.

مجموعة أشعار.

• محمد أنياس (الشيخ)

مجموعة أشعار.

• محمد سنبو بن أبى بكر (الوالى)

ديوان شعره.

• محمد الناصر (الشيخ الكبرى)

النفحات الناصرية فى الطريقة القادرية.

• محى الدين كشمه (الشيخ)

مجموعة أشعار.

• الهادى تورى (الشيخ)

القافية المطولة.

مجموعة أشعار.

ثانيًا - المطبوعات :

١ - العـربية :

• ابن بطوطة

رحلة ابن بطوطة (دار صادر ودار بيروت).

● ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد
العبر وديوان المبتدأ والخبر (دار الكتاب اللبنانى) .
● ابن رشيق القيروانى
العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده (طبعة دار الرشاد الحديثة - الدار البيضاء) .
● ابن عذارى المراكشى
البيان المغرب فى اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، تحقيق ج.س. كولان وأ. ليفى بروفنسال، دار الثقافة بيروت .
● ابن قتيبة الدينورى، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة التنوخى
الشعر والشعراء (دار الكتب العلمية) .
● أبو العلاء المعرى، أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخى
الفصول والغايات فى تمجيد الله والمواعظ (المكتب التجارى للطباعة والتوزيع والنشر - بيروت) .
● البكرى، أبو عبيد الله بن عبد العزيز
المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب (دى سيلان، باريس ١٩٦٥م) .
● بهاء الدين العاملى
الكشكول، تحقيق الطاهر أحمد الزاوى (دار إحياء الكتب العربية) .
● الحريرى
شرح مقامات الحريرى للشريسى، تحقيق أبو الفضل إبراهيم (المؤسسة العربية الحديثة) .
● الطالب محمد بن أبى بكر الصديق البرتلى الولاثى .
فتح الشكور فى معرفة أعيان علماء التكرور (دار الغرب الإسلامى، بيروت) .

- عبد الرحمن السعدى

تاريخ السودان (هوداس، باريس ١٨٩٨) .

- عبد الله فودى

ضياء التأويل فى معانى التنزيل .

- محمد بن سلام الجمحى

طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر (دار المعارف) .

- المقريزى، تقى الدين أحمد بن على

الذهب المسبوك (لجنة التأليف والترجمة والنشر) .

- ياقوت الحموى، لسان الدين ابن الخطيب

معجم الأدباء (دار المأمون) .

ثالثًا - دواوين الشعر :

- شرح ديوان امرئ القيس

دار صادر ودار بيروت .

- شرح ديوان عمر بن أبى ربيعة

محى الدين عبد الحميد (مطبعة المدنى، القاهرة) .

- ديوان أبى نواس

دار صادر ودار بيروت .

- ديوان بشار بن برد

شرح محمد طاهر عاشور، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة .

- ديوان الخنساء

دار صادر ودار بيروت .

- ديوان طرفة بن العبد

شرح الأعلم الشنتمرى، مجمع اللغة العربية بدمشق .

● ديوان عنترة
تحقيق محمد سعيد مولوى (المكتب الإسلامى)
● ديوان المتنبى
شرح أبى البقاء العكبرى (مصطفى البابى الحلبى وأولاده) .
● ديوان النابغة الذبيانى
تحقيق الدكتور شكرى فيصل (دار الفكر) .
● أشعار الشعراء الستة الجاهليين .
للأعلم السنتمرى (دار الفكر)
● شرح القصائد السبع الطوال
لأبى بكر بن القاسم الأنبارى (دار المعارف) .
● شرح قصيدة بانت سعاد
لكعب بن زهير، لابن هشام، تحقيق محمد حسن أبو ناجى (الوكالة العامة للتوزيع) .
● مختار الشعر الجاهلى
مصطفى السقى (مصطفى البابى الحلبى وأولاده) .

رابعًا – المراجع :

● أحمد شيخو علادنش (الدكتور)
حركة اللغة العربية وآدابها فى نيجيريا (رسالة دكتوراه) .
● أيهم عباس حمدى القيسى
شعراء العقيدة فى عصر صدر الإسلام (مكتبة النهضة الحديثة) .
● عامر صمب (الدكتور)
الأدب السنغالى العربى (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر) .

● عبد القادر زبادية

دولة سنغاى فى عهد الأسقين (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر).

● عبد الله بن حامد الحامد

شعراء الدعوة الإسلامية.

● عبد الله كنون

النبوغ المغربى فى الأدب العربى (دار الكتب للملايين).

● على أبو بكر (الدكتور)

الثقافة العربية فى نيجيريا (مؤسسة عبد الحفيظ البساط، بيروت).

● عمر رضا كحالة.

معجم المؤلفين (دار إحياء التراث العربى، بيروت).

● كامل سلامة الدقس (الدكتور)

وصف الخيل فى الشعر الجاهلى (دار الكتب الثقافية، الكويت).

● محمد الربيع (الدكتور)

أبو الحسن التهامى حياته وشعره (مكتبة المعارف، الرياض)

● محمد زغلول سلام (الدكتور)

الأدب فى العصر المملوكى (دار المعارف).

* * *

فهـــرس المـوضـوعات

رقـم الايـداع : ٩٤١٤ / ٢٠٠١